مقاتلوا الشمس

أو

رحلة في حضارة الأزتيك والمايا

تأليف : رولاند كوربر

ترجمة : د. ضرغام الدباغ

الإهداء

إلى روح صديقي الأديب محمود جنداري

كان سيسره قراءة هذا العمل
لكن هو سبقه سيف الموت ، و سبقني أنا سيف الوقت

العنوان الأصلي للكتاب: البرتو ومقاتلوا الشمس
Alberto und Kriege der Sonnen

مكان الإصدار والتاريخ: رويت لينغين / 1960
Reutlingen / 1960

دار النشر: أيسلن و لايبلين
Verlag: Esslin und Laiblin

تأليف: رولاند كوربر
Verfasser : Roland Körber

ترجمة : د. ضرغام الدباغ
DR. Dergham Aldabak

الطبعة الثانية

المركز العربي الألماني / برلين
2020

المنشور رقم (40)

يوزع مجاناً

الفهرس

1. البداية: محكمة في الطريق.
2. قصة بلعوم الشيطان.
3. الطريق إلى آسيا وإلى بيت همبولت.
4. البالاكيو في مكسيكو.
5. عالم الأزتيك.
   أ. تقويم جديد بدأ.
   ب. البشر يساعد الأفلاك.
   ت. ولادة الشمس.
   ث. طفل يأتي إلى العالم.
   ج. تقويم كلمة الأساطير أم السنة القمرية.
   ح. السنة الشمسية.
   خ. حرب بأسم آلهة الشمس.
   د. هبوط الآلهة.
   ذ. الوصول إلى عالم آخر.
   ر. الصراعات الأولى.
   ز. شولولا المقدس.
   س. إرسالية إلى الممر.
   ش. المعجزة التي لم يرها أحد.
   ص. موستيسوما يذهب إلى الفخ.
   ض. أخبار سيئة من الساحل.
   ق. في الحصون المحاصرة.
   ك الهياج المشكوك فيه.
   ل. الأعجوبة أتومبا.
   م. إبادة مملكة الأزتيك.
6. زيارة من أوكساكا.
7. عند مادونا غوادالوب.
8. هرم الأفاعي.
9. عاصمة آلهة نجمة الصباح.
10. سفرة إلى أواكساكا.
11. على مونت ألبان المقدس.
12. سفرة إلى الجبال.
13. الماضي الغارق في الأسرار.
14. لغز تولاكوستلان.
15. الليل على جبل الأرواح.
16. كنز قبور الزابوتيك.
17. لوحة الأزمنة.
18. مصادر.

مقدمة المترجم

عندما قرأت هذا الكتاب، تبادر لذهني على الفور ترجمته للغة العربية. فالكتاب يغطي مساحة مهمة من تاريخ حضارات المكسيك، لا بد من الإطلاع عليه. والكاتب وهو مؤرخ، أستحسن، وحسناً فعل، أن يكتب عمله بلغة هي مزيج بين الرواية والتاريخ، ولكنه في غضون ذلك يسرد تاريخ حضارات المكسيك بطريقة رائعة، وملامح الحياة المكسيكية المعاصرة، والعمل أخيراً يجمع بين الدقة المعلوماتية والسلاسة.

تاريخ حضارة المكسيك مثير للقراء، فالمكسيك تعرضت إلى غزوات عديدة، وللأسف نجح الغزاة بتدمير معطيات حضارية كثيرة، ولم يكن يهمهم سوى الذهب(قديماً) والنفط (حديثاً) لا فرق، الغزاة على مر العصور سراق ونهابون، وفي سبيل هدفهم هذا يدمرون حضارات، وتقاليد، ويمحون منجزات، ولا يهمهم في ذلك سوى الذهب الأصفر قديماً، والذهب الأسود حديثاً، وما وصل إلى متاحفهم من آثار حضارات شعوب أخرى، ما هو إلا القليل مما سلم من أيديهم خلال الحروب والغزوات، والدليل الأحدث على هذه الجرائم الحضارية، ما تعرضت له الآثار العراقية سواء في المدن التاريخية(بابل ـ أور نينوى ـ نمرود)، أو تلك الآثار الموجودة في المتاحف التي نهبت بإيعاز من المحتلين الأمريكان للعراق وبإشرافهم 2003، ناهيك عن تحف فنية لا حصر لها وجدت طريقها بهذه الصورة أو تلك إلى المزادات العالمية أو كمقتنيات شخصية لتجار الحروب ولقادة الجيوش العدوانية.

المكسيكيون القدامي، كانوا مؤمنين بالخرافات، وتلك دفعتهم الإيمان بكل ما تشير إليه المؤسسة الدينية، ولسوء الحظ، فإن المؤسسة الدينية أشارت عليهم بالصبر حين بلغ نبأ الإنزال الاستعماري الأسباني، وقامت بالأستخارات، ثم أن كهنتهم، توصلوا إلى قناعة، أن القادمون هم رسل الآلهة، هكذا تقول الاستخارة، فلا تقاوموهم، قيل لهم أنهم يتلون المواطنين ويهدمون المدن والقرى، فأجابهم الكهنة، هذا لأنكم أهملتم دينكم، والآلهة غاضبة عليكم.. وباء على هذه الفتوى، لم يقاوموا المحتل، إلا بعد أن فات الآوان ودمرت حضارات المكسيك.

والمضحك المبكي، أن هذه الجرائم الفضيعة تتم بأسم نشر الحضارة والمدنية، فيما الأصح أن تلك الحضارات تلقى التدمير والإبادة على أيدي الغزاة، تلك الآثار التي صمدت ألوف السنين أمام عوامل التعرية الطبيعية، من أمطار وثلوج ورياح وعواصف، ولكنها اليوم ترقد في المتاحف العالمية في العواصم الإمبريالية، أو كمقتنيات شخصية للأثرياء.

ومن المفيد هنا أن نورد هذه المفارقة التي تستحق التمعن: هو أن جنرال فرنسي مستعمر تبجح أمام قادة وأفراد القبائل البدو في المغرب العربي قائلاً: إننا جئنا لنجلب لكم الحضارة والثقافة. فأجابه البدوي بكل بساطة عفوية: ولكن العجيب أنكم جلبتم من أجل ذلك كل هذا البارود والمفرقعات ...

للأسف نجح الغزاة(الأسبان قديماً والأمريكان حديثاً) في إلحاق أفدح الأضرار بالشعب المكسيكي، وتاريخ حضارته، وخلقوا قيماً هجينة، وما تبقى هو شاهد على تلك الهجمات الهمجية الوحشية ولكن ها نحن نشاهد ونسمع، أن كل شيئ قد أصبح تاريخاً، والشعوب استردت نفسها وإرادتها، الأرض بقيت، الشعب بقي، والغزاة رحلوا.

وللأسف نجح الأمريكان ومن تحالف معهم في تدمير جزء مهم من حضارة بلادي .. بلاد الرافدين .. فأدخلوا اللصوص بإشرافهم إلى المتاحف وسرقوا آثاراً لم تقوى الطبيعة عبر ألاف السنين على أبادتها، ولا غزاة همج مروا من هنا، ولكن غزاة العراق الجدد جعلوا من آثار بابل معسكراً للقوات البولونية، وآثار أقدم مدينة ومدنية في العالم(أور)، معسكراً للقوات الغازية الأمريكية.

إلا أن حضارة تمتد جذورها إلى أعمق الأعماق لا يمكن اقتلاعها .. وسيجني الغزاة عار التاريخ الذي لا يمحى بقرارات من مجلس الأمن، والعراقيون سوف لن ينتظروا سنين ليكشفوا ما حدث، فهم يقومون به منذ الآن، ورسل الحضارة يدركون ما فعلوا، وهو عار بكل المقاييس، وجريمة أن تنهب آثار بابل وأور بعد أن صمدت بوجه عوامل التعرية الطبيعية أكثر من خمسة الآف سنة، فجعلها الأمريكان وحلفائهم ساحات لدباباتهم، وعبث جنودهم ومجنداتهم..

هو تحضر جديد من أهم سماته العداء للحضارة.

المفارقة هنا أن تمتلك المؤسسة الدينية حق إصدار القرارات السياسية، وبعض من تلك القرارات ستلعب الدور الحاسم في تاريخ الشعوب ومستقبلها إلى آجال غير محددة. المؤسسة الدينية عندما تكون هي صاحبة القرار، ولا أظنها تقبل بدور المشارك الثانوي، فالمؤسسة الدينية تنفرد بخاصية معروفة، هي أنها تعتبر نفسها المقام الأول ولا يوجد مقام ثاني وثالث، هي على صح، وغيرها سيان من يكونوا من الآخرين، فهم على خطأ ذلك أنها تمثل إرادة الرب، وماذا يمثل الآخرون ..!

المصالح البشرية والوطنية لا تساوي فلساً واحداً في عرف المؤسسة الدينية، وهكذا فنحن إذن أمام إشكالية سياسية لها طابع خاص. ففي العلوم السياسية المعاصرة، يتخذ القرار السياسي عبر قنوات عديدة، وقياس حسابات دقيقة، وردود أفعال محتملة، وموقف عناصر وجهات كثيرة، وجرد لقدرات ومستودعات الإرادة الذاتية، وقدرات الجهات المقابلة، وينبغي أن يشارك في صياغة القرار السياسي، وهي عملية يستحسن التأني بها وأن لا تكون ارتجالية سريعة فتعرض القرار لمصاعب في التنفيذ. وكلما كان القرار يمس مرتكزات الدولة، كانت عملية اتخاذ القرارات تكتسب أهمية استثنائية تستلزم أقصى قدر من الفحص والتمحيص.

المؤسسة الدينية لا تحتاج لكل ذلك، ربما تكفي رؤية طالع النجوم، أو إجراء استخارة، أو السؤال من كاهن لا يعرف جدول الضرب ..! بيد أن الكاهن إن نطق، فقد وقع الفأس بالرأس ولا مرد لقراره. الكاهن لا يقر بلعبة التوازنات، ولا يعترف بإقامة الائتلافات والتحالفات بين قوى متعددة الأيديولوجيات، فالآخرون برأيه: وضعيين، فاسقين، مردة، هراطقة، زنادقة، وصولاً إلى كفرة

مالعمل ...؟

التاريخ بتطوره حل هذه الإشكاليات، وما تبقى هي الذكرى فحسب، رجل الدين مكانه أن يعظ في المعبد، أما من لا يزال يعيش في حمى الذكرى فالتجربة وأحداث التاريخ المقبل ستكون خير معين له، هذا إن كانت هناك ثمة فائدة من التجربة، وبعض الأحيان لا توجد فائدة للأسف من التجربة، فأنت لا تستطيع القول فلنجرب ماذا يحدث إن ضغطت على زناد سلاح ناري مصوب إلى الصدغ، فالسلاح الناري سيحدث فجوة محترمة في الجمجمة بما لا يمكن معها إعادة التجربة.

نحن نضرب الأمثال، ونتوسل من عبر التاريخ أن تكون مؤثرة في وعي الناس.

أني أردت أن أهدي هذا العمل لروح صديقي الكاتب الأديب محمود جنداري، وكان حتماً من بين أفضل كتاب القصة في بلادنا، كنت أتذكره كثيراً عندما ترجمت الكتاب، وكلما أقرأه ....

الكتاب ممتع، ويحيط القارئ من خلال رحلة ممتعة بحضارة مهمة، وبتاريخ يجب أن لا ينسى، وأيضاً بدروس سياسية مهمة. التاريخ سلسلة متواصلة وينبغي فهمه على هذا النحو، تلكم هي العبرة من الكتابة والنشر.

لا أريد إقناع أحد، ولا أن أعلم أحداً، التاريخ هو المعلم الأكبر، نحن نيسر فقط للناس الإطلاع فحسب ...!

ضرغام

بغداد المحروسة / أبو غريب
أيلول - سبتمبر / 1993

1: البداية

كانت أربعة أسابيع قد انصرمت على وجود البرتو في مكسيكو، وقد أعجبته الحياة في موطنه الجديد. فمنذ اليوم الأول، كان قد نال المحبة في قلب الخال بيتا الذي كان لطيفاً معه كما لو أنه أبنه بالفعل، ولم يعد البرتو يتذكر إلا نادراً، ذلك الوقت الذي شعر وكأن العالم ينهار أمامه قبل سنة عندما توفيت والدته، وكان عليه أن يواجه الحياة وحيداً وهو أبن خمسة عشر عاماً فقط، وهنا وردت رسائل العم بيدرو كاسيلاس من مكسيكو، فقد كتب إليه يشكو هو الآخر وحدته، وبأنه يحتاج إلى البرتو في عمله في تجارة التحفيات، وبأن بإمكان البرتو الذي كان حصيفاً وذكياً، أن يتخذ من تلك مهنة له يوماً ما، إذ أن الخال لم يعد ذلك الشاب الذي كان، ولكن ألبرتو لم يكن يفهم الكثير عن الأشياء القديمة التي يتعامل بها بيدرو كاسيلاس، ولكن العم كتب له بأن ذلك لا يهم، فإنه سيتعلم بسرعة إذا منح القليل فقط من الاهتمام إلى جمال الأشياء القديمة، أما فيما عدا ذلك، فإن كل شيئ سيكون جاهزاً.

وحتى في سان سباستيان بأسبانيا، توجد مثل تلك المحلات، ومنذ أن علم ألبرتو بأنه سيسافر إلى المكسيك، كان غالباً ما يلقي بنظرة على تلك المعروضات، وكان بيتر، والذي يعد صبياً ناضجاً فهيماً، روى له عن الهنود القدماء، بل أنه تمكن من الحصول على بضعة كتب ذات صور عن المعابد والآلهة. وبتوتر وفضول، كان ألبرتو يستمع بدقة عندما يحكي له بيتر عن أكتشاف مكسيكو، والآن فحسب أدرك كيف أن أوربا تستحق الشكر على هذا الاكتشاف، وقبل ذلك لم يكن يعلم بأن كيزان الكاكاو والطماطة والديوك الرومية الملونة أنما كانت سفن المحتلين الأسبان تجلبها إلى العالم القديم(أوربا). وسمع ألبرتو أيضاً عن الأزتيك وعن الأضاحي البشرية التي يقدمونها، وقد استغرب التثمين الذي أحيط به الملك موكستيتسوما الثاني، وكانت رغبة وأمنية البرتو تشتد إلى أن يتعلم ويتعرف أكثر فأكثر: لقد أصبحت مكسيكو في طريق حياته، وقد رأى نفسه يكتشف كرجل شهير، وكأستاذ محترم مدينة المعابد المفقودة المليئة بالمقابر الذهبية، بل وربما سيكون هو نفسه مكتشف الكنوز الضائعة للأزتيك.

وكان على ألبرتو أن يتذكر أحياناً، كيف أنه أصيب بخيبة أمل، عندما رست السفينة التي تقله بعد ثلاثة أسابيع من الإبحار في ميناء فيراكروز، وهذه المدينة (الميناء) لم تعجبه بتاتاً، وكان قد رسم كل شيئ في مخيلته بألوان جميلة، ولكن ما يراه الآن هو أصداف، والعمال الذين يعملون في الشحن لا يبدو عليهم بأنهم هنود كالهنود، فلا أحد منهم يرتدي العباءة التي تدعى زارابا Zarape ولم تكن هناك خيول نارية تعدو في شوارع المدينة، ولكن كان يلوح من بعيد، وذلك ما واساه حقيقة، فوهة بركان دي أوريتسابا والجبال المغطاة بالثلوج، وقد اشار الخال بيتا إليه عندما كان يستقبل البرتو في الميناء قائلاً: " عندما ينظر المرء في فيراكروز إلى أوريتسابا فهو سيمكث فيها، هكذا يقول الناس على أية حال ". وتطلع الاثنان إلى الجبل عندما كانا يمران عبر قرطبة إلى هضبة مكسيكو.

واليوم لا يستطيع البرتو أن يفهم لماذا كان في ذلك الوقت بالذات يود لو يصعد إلى السفينة مرة أخرى من أجل استعادة تلك اللحظات.

وفي العاصمة مكسيكو سيتي، كان قد نسي، فهناك حيث بوسع المرء أن يحيا، وهناك كل ما يمكن رؤيته ! عدا معابد الأهرام الأزتيكية التي كانت تسيل عليها دماء القلب من الضحايا الأسرى، وعندما كان الخال بيتا يسير معه أمام الكاتدرائية التي أقيمت على أنقاض المعبد الرئيسي.

" لقد أتلف الأسبان كل شيئ عندما احتلوا عاصمة الأزتيك تلالتيلوكو " (الاسم الكامل للعاصمة طويل جداً Tenochtitla-tlateloco - المترجم)، قال الخال بيتا بينما كانا يقفان على حافة حفرة عميقة غير بعيدة عن الكاتدرائية، وكانت السيارات تسير في صفوف طويلة، ومباشرة تحت الإسفلت، كان البناة، هكذا يروي الخال، قد تركوا أسس المعبد الرئيسي واضحة المعالم، وكل ما استطاع البرتو رؤيته، كانت سلالم عريضة نحتت من الحجارة، وهناك ثعبان ذو رأس هائل لتنين، " أنك سوف تقابل الثعبان كثيراً في الفن الأزتيكي " قال الخال .

" هل هذا كل شيئ ؟ " سأل ألبرتو خاله مندهشاً.

أبتسم الخال وأجاب " أنتظر، أنك ستشاهد أكثر مما فيه الكفاية " . كان ذلك قد حصل قبل أربعة أسابيع، وكان ألبرتو في غضون ذلك قد قام بعدة جولات، كانا يعودان بعدها دائماً إلى مدينة مكسيكو.

محكمة في الطريق

تطلع ألبرتو إلى عداد البنزين في السيارة، وكان المؤشر يقف عند علامة الصفر. " أعلم ذلك " قال الخال بيتا واستطرد : " أنها تسير ثلاثين كيلو متراً بعد، وسنصل بذلك بالضبط إلى تاكسكو ". وابتدأ الطريق بالصعود، وكان الخال بيتا متمسكاً بمقود العربة كسائق سيارة سباق عجوز على إسفلت الطريق الساخن.

" ألم يكن أفضل لو أننا أجلنا مسألة تاكسكو، ففي غضون نصف ساعة سيحل الظلام ". قال ألبرتو وهو يفكر بقدح كبير من عصير الفواكه. وكان الطريق من الساحل الغربي انطلاقا من أكابولكو وعلى طريق الهضبة قد أصبح حاراً وجافاً، وعلى امتداد ذلك الطريق كله، لم يكن يوجد هناك محطة بنزين واحدة بإمكانها أن تبيع قطرة بنزين واحدة، إذ أن ذلك كان قد نفذ بأكمله.

" أتدري " واستطرد الخال بيتا قائلاً: " أنا لا أرتاح للقيادة ليلاً، لأن المرء لا يدري من يجلس خلف الصبار هناك ويسن سكينته ".

ضحك ألبرتو، حقاً أن الخال بيتا ليس بطلاً، هكذا فكر، ترى أم أنه يريد بذلك أن يخيفني فحسب ..؟ وسعل محرك السيارة في المنعطف " ها .. ها .. ها .. سيري ... سيري .." وعاد المحرك يعمل جيداً في المنطقة المستوية مرة أخرى، ولكن في المنعطف الآخر توقف تماماً، ولكنه عاد وأشتغل مرة أخرى، وعادت العربة تعدو مرة أخرى بصورة اعتيادية.

" الشيطان فقط يعلم أي قذارة قد تسربت إلى المحرك أثناء مكوثنا في أكابولكو ".

كان ألبرتو يتطلع إلى علامات الطريق، وكان أحدها يشير: 7 كيلومتر إلى تاكسكو.

بعد مئة متر، توقفت العربة أخيراً ونهائياً؟ " هذا ما نلناه " كان الخال بيتا قد غدا أحمر اللون من الغضب، ثم أطلق تنهيدة عميقة وقال " هذا لا يفيد، وعندما تنزعج، فذلك يعني أنك قد خسرت مرتين، فلنترجل ".

وضع الخال وبيدرو الأحجار وراء الدواليب الخلفية، ووقفا على الطريق. كانت الشمس قد أفلت خلف الجبال واختفت، وسيحل الظلام في غضون بضع دقائق.

وبينما كان الخال بيتا يصب جام غضبه ويشتم سوء تنظيم مبيعات البنزين، وكذلك سوء الحظ، كان ألبرتو يفكر ويحلم بقدح عصير الفواكه البارد، وهو ما سوف لن يتحقق إلا فيما بعد. وبعد أن سار لمدة عشر دقائق، حل الظلام، وعندما توقف الخال بيتا يسترد أنفاسه، سمع ألبرتو أصوات رنين بعيدة لناقوس كنيسة، ومن الوادي هب صوت نهيق حمار. كان الهواء ساكناً، وفي المنحدر بالقرب منه كانت هناك أصوات حجارة تتدحرج. تطلع ألبرتو إلى ذلك الموضع، فلربما أن أحد الأغوانات قد سبب ذلك(الأغوانة: نوع من السحالي ـ المترجم).

" ألبرتو، أنا قلق أشد القلق بصدد عربتنا، أتمنى أن لا يسرقها أحد في هذه الفترة ..! ".
" هـ ..م ..م " دمدم ألبرتو، ولم يكن بوسعه أن يقول شيئاً، فالخال بيتا لم يكن بطلاً.

وابتدءا يحثان الخطى إلى الأمام، وعندما وصلا إلى منعطف واسع، لمحا إلى اليسار ضياء خافتاً كتان يوحي ولكن دون وضوح تام، إلى كونه ينبعث من كوخ مبني بالآجر (الطين المجفف). أراد ألبرتو أن يتجه إلى ذلك الضياء، ولكنه شعر أن أحداً يسحبه من حزامه، وضغط الخال بيتا على فمه بكفه، وأشار بانزعاج إلى مواصلة المسير، فمضيا كلاهما يسيران على الطريق وهما يحاذران إصدار صوت وقع أقدامها على الطريق.

" بحق الله لا تصدر صوتاً " همس الخال بيتا " من يعلم أي من الرجال هم هؤلاء ".

وأمام الكوخ كان شيئاً ما يتحرك، ستة رجال، وكان الرجل السابع يبدو مقيداً، يقوده الرجال الآخرون، ولم يكن بوسع المرء أن يشخص شيئاً في العتمة حتى الصخور، ولكن حركات الرجل المقيد الذراعين إلى الخلف كانت تظهر بأنه يحاول الإفلات والفرار فيما كان الرجال الستة الآخرون يدفعونه ويضربونه بقبضات أيديهم دفعاً إلى فسحة خالية كانت تبعد حوالي ثلاثين متراً عم موقع بيتا والبرتو اللذين كانا منبطحين وأنوفهم تلامس العشب الجاف.

وقف الرجال على شكل نصف دائرة، وللحظة مرت، كان بالأمكان رؤية وجوههم عندما قام أحدهم وكان قائداً للمجموعة فيما يبدو، بإشعال عود ثقاب وكأنه يبحث عن شيء ما.

أعتقد ألبرتو أنه شاهد في ذلك النور البسيط المتراقص، أن الرجال يقفون أمام ما يبدو أنه حفرة في الأرض، وتقدم رجل طويل القامة إلى الأمام وبدأ يتحدث بصوت فيه رنة موسيقية كأنه يغني، فيما كان الرجل المشدود الوثاق يحاول عبثاً أن يفك قيوده، ولكن ذلك لم يكن يزعج الرجل الطويل في سيولة وانطلاقة حديثه، وقد تمكن أن يلتقط مقاطع مقتضبة من الحديث: " اللصوص يجب أن يموتوا ... الكلاب الجرباء يجب أن تفطس .. الأم المقدسة سوف تعاقبك ..!".

ثم حدث أن هجم أربعة رجال على الرجل المشدود وقذفوا به إلى الحفرة المظلمة، وبدا لألبرتو أنه سمع صوت صرخة وارتطام على الأرض وصوت ينم عن ألم..

وقذف الرجال الستة بأنفسهم على الأرض بحيث أن رؤوسهم كانت تظهر فوق حافة الفسحة، ثم أنهم أشعلوا النار في ورقة ورموا بها إلى الحفرة، وبد بأن تلك الشعلة الصغيرة أضاءت لفترة

طويلة تلك الوجوه المتوترة من الهنود ذوي الشعر الأسود الفاحم. كتم ألبرتو أنفاسه، ترى ما لذي يجري هناك ..؟ وعندما تحول ببصره إلى الخال بيتا الذي وضع يديه على فمه ويقصد بذلك التزام الصمت والهدوء، مما أبقى سؤاله معلقاً في حنجرته.

مضت ربما دقيقتان على ذلك، وهنا نهض الرجال مرة أخرى ونفضوا التراب من على سراويلهم الكتانية، ثم اختفوا في الظلمة كما كانوا قد ظهروا.

ظل بيتا والبرتو ممتدان على الأرض طويلاً، إلى أن لم يعودوا يشعرون بشيئ، وكانت خفقات قلب الصبي تصل إلى عنقه ولكن فضوله لم يزل شديداً.

" سوف أذهب وألقي نظرة هناك ترى ماذا حل بالرجل المشدود الأيدي..؟ " قال ألبرتو. ولكن الخال بيتا أوقفه بقوة وتصميم قائلاً " لنبتعد عن هنا .. لنبتعد فقط " ودفعه الخال بعيداً ومضيا سوية.

بدت مدينة تاكسكو بعد المنعطف التالي مباشرة، وقد قررا أن لا يخبرا العاملين في محطة الوقود عما شاهداه، " ينبغي علينا أن نجري إخبارا لدى الشرطة ..؟ " سأل ألبرتو.
" من الأفضل أن لا يهتم المرء بذلك، ثم أننا ماذا سننال من ذلك ..؟ دع الهنود يفعلون ما يشاءون، وهم بالتالي لديهم عاداتهم الغريبة". أجاب الخال بيتا. هز البرتو رأسه وهو يتذكر بأن الخال كان قد أخبره قبل ذلك، بأنه أعتاد على التصرف في مكسيكو بشكل يختلف عما عليه الحال في أوربا العجوز.

وبعد وقت قصير، عادا كلاهما بسيارة محطة الوقود، المسافة نفسها، وعندما مرا في ذلك الموقع ذي الحفرة المظلمة، ضغط سائق عربة محطة الوقود على عتلة البنزين وقاد العربة بسرعة عبر المنعطف، وبجانب المرآة أمام النافذة كانت صورة صغيرة للأم المقدسة تضيئ بمصابيح صغيرة، بينما تمتمت شفاه الرجل بصلابة صامتة.

" ما لذي يجري هنا أيتها السيدة ..؟ " سأل ألبرتو بخبث، " ترى هل يسكن هنا شيطان الأم المقدسة ..؟ ".

فزع سائق العربة عندما حدثه ألبرتو هكذا، وبدا الخوف في عينيه، وأجاب هامساً وكأنه يبوح بسر " بلعوم الشيطان " وأردف ذلك بإشارة من أبهام إصبعه إلى الخلف، حيث كانت الحفرة السوداء التي أختفي فيها الرجل الموثوق اليدين، ولم يستغرق الأمر طويلاً حتى ظهرت أمامهم سيارة الخال بيتا على ضياء مصابيح عربة الوقود واقفة على حافة الطريق، وكان سائق العربة متعجلاً جداً في ملئ عربة الخال بالوقود الذي جلبوه معهم، وما أن أنهى ذلك حتى أنطلق عائداً بعربته إلى تاكسكو

2 : قصة بلعوم الشيطان

تعثرت السيارة عند مرورها فوق سطح الشارع المفروش بالحصى الصغير ومستوي بصورة جيدة في أزقة تاكسكو الضيقة، وأمام بيت ذات واجهة طويلة بطابق واحد، اسباني الطراز، توقف الخال بيتا بسيارته.
" ها قد وصلنا، لنرى ما إذا كانت السيدة فوتناو هنا ".

ثلاث مرات طرق بالمطرقة الحديدية للباب الضخم المصنوع من خشب البلوط، ولم يطل انتظارهم، فقد كانت أصوات خطوات من داخل البيت تدنو، وفتحت البوابة بصوت صرير، وظهرت سيدة شقراء في فتحة الباب. وقد تعرفت فوراً على الخال بيتا.
" لماذا جئتم هكذا متأخرين يا أعزائي..؟ هل اكتشفتم هرماً جديداً في الطريق من أكابولكو إلى هنا ..؟ كنت قد بدأت تواً بالقلق عليكم ".
بدأ الخال بيتا يروي لها مسألة البنزين، ثم أنه قدم البرتو قائلاً: " ها هو أبن شقيقتي في أسبانيا سنيورة، إنه سيستلم ذات يوم أعمالي عندما يكبر، وقبل ذلك سوف لن يأتي على حماقات ".

قدم ألبرتو يده لمصافحة السيدة منحنياً باحترام عميق.
" كم هو عمرك يا فتاي ..؟ ".
" ستة عشر يا سنيورة ".
" والآن يجب أن تكون ممتناً بأنك قدمت إلى هذه البلاد الرائعة ". قالت ذلك وتطلعت بنظرة ودية للخال بيتا، واستطردت قائلة: " وأن لك خالاً حكيماً ومحباً كالسنيور كاسيلاس ".

ومبتسماً سأل وهو يريد أن يغير الحديث " هل سنكون محظوظين ونلتقي اليوم بزوجك ..؟ "
هزت رأسها قائلة: " أنت تعلم يا عزيزي أنه يمضي كل وقته في الجبال بحثاً عن الماضي ".

ومروا عبر صالة كبيرة، ثم عبر ممرات إلى درج حجري عريض، هبطوا منه إلى الأسفل. وقد أستغرب البرتو، فإنه عندما كان في الطريق لم يلاحظ سوى مسكناً واحداً ذو طابق واحد، البناية كانت تقع على مرتفع وبشكل لا يلاحظ من الشارع إلا الطابق العلوي منه، وكانت الجبهة الخلفية للمسكن تطل على وادي ضيق، وهناك تطل قرية ذات جمال ساحر، وفي الحدائق الاستوائية تزهر أشجار وزهور بإسراف وبذخ.

والغرفة التي قادتهما إليها، كان لها باب عريض وشباك واحد تطل على درج ذي أعمدة، ومن هنا يمكن ألقاء نظرة عريضة إلى المدن الصغيرة في الجبال، وفي الظلمة، كانت هناك هناك كالغيوم السوداء، نقاط من الضوء فقط كانت تشع من هنا وهناك بألوان مختلفة أعلى وأسفل المرتفعات.

وعندما نودي عليهم لتناول الطعام، فقد لاحظ كلاهما لأول مرة كم كانوا جياعاً، فمنذ أن تناولا إفطارها في أكابولكو، وعدا بضعة أصابع موز، لم يتناولا شيئاً، وكانت حادثة بلعوم الشيطان قد جعلت من شهية ألبرتو إلى قدح عصير الفواكه المثلج في طي النسيان. وهنا تذكر ذلك الآن مرة أخرى، وتجاهل الدجاج المحمر الشهي الذي تفوح منه روائح لذيذة والذي كان أمامه مباشرة، فقد هجم على قدح كبير من عصير تمر هندي ليروي بها ضمأ حنجرته، وبينما كان يمسك بفخذ الدجاج، بدأت أحداث هذه الأمسية تدور في مخيلته، كان يستمع بشغف إلى السيدة فونتاو وهي تروي عن بلعوم الشيطان، وكان الخال قد أشتبك معها في محادثة عن الحفر والقبور الهندية

القديمة، وكان قد جاء إلى تاكساكو من قبل من أجل الحصول على بعض القطع التي كان السيد فوتناو قد عثر عليها في تحرياته وحفرياته في قرى الجبل.

وفوق مدفأة الحطب في الصالة، وعلى حافتها العلوية كانت هناك فازات (مزهريات) مكسيكية قديمة، فوقف الخال وتناول تمثالاً صغيراً لإنسان ولكنه برأس كلب ضخم.

" أنظري هنا، هذه قطعة أزتيكية نادرة (مرافق الشمس في مملكة الموتى) كان زوجك قد وجده ".
" نعم، بالقرب من أكسوخيكالكو (Xochicalco) في أعياد التولتكن ".
كان الخال يهز رأسه بأستغراب وقال " حقاً، ويا للعجب، كيف وصل إلى أكسو خيكالكو ؟ فهي قد تهدمت في القرن الحادي عشر ميلادية وأكسولوتل (Xolotlْ)يعودون إلى القرن الرابع عشر ".

وعند هذه الكلمات، سحب الخال نظارات أخرى من جيبه، لينظر عن قرب أكثر وبدقة للتمثال الآلة ذي رأس الكلب، والذي يرافق أفول وشروق الشمس. وهذه المناسبة أستغلها ألبرتو من أجل أن يخبر السيدة فوتناو عن الحادثة، ووضع الخال بيتا تمثال الآلة الفخاري على حافة الرف وشارك في الحديث، كانت السيدة فوتناو تستمع بانتباه وتهز رأسها وهي مستغرقة في التفكير.

" نعم " بعد لحظة من السكون " وهنا أقاموا مرة أخرى العدل على طريقتهم والشرطة عاجزة عن فعل شيئ ".
" أي عدالة هذه ..؟ " سأل الخال بيتا بدهشة.
" نعم يا خالي، لقد سمعنا عندما قال قائد الجماعة، اللصوص يجب أن يموتوا، وقد كان الرجل لصاً ولذلك قذفوا به إلى الحفرة، إنني أريد أن أعرف فقط، فيما إذا كانوا قد سحبوه من الحفرة إذ ليس بالإمكان إبقاؤه هناك إلى الأبد ".

" إنه سيكون من النادر أن يكونوا قد انتشلوه من الحفرة التي لا يعلم أحد كم هو عمقها، ومن يسقط بها فإنه ضائع لا محالة " قالت السيدة فوتناو وبتعثر.

" ألم يحاول أحد قط أن يعرف بدقة إلى أين تؤدي تلك الحفرة، وكم هو عمقها ..؟ " سأل ألبرتو باستغراب.

تابعت السيدة فوتناو قائلة: " طبعاً، فقبل بضعة أسابيع كانت هناك فرقة عمل من عمال مناجم الفضة بقيادة مهندس من بوكاديل دياملو، لقد كانوا يريدون أن يعلموا أخيراً كم يبلغ عمق الحفرة، وكانت بصحبتهم أدوات قياس وحبال. وتمكن بضعة رجال شجعان من الوصول إلى عمق 450 متراً حيث كانت رائحة الكبريت النتنة تنبعث هناك، ولم يكن بالإمكان الوصول إلى أعمق من ذلك، إذ كانت رائحة الكبريت تجعل تلك المحاولات من المستحيل، وكذلك كانت الحرارة حتى بالنسبة لرجال المناجم القساة الغلاظ أمراً غير محتملاً. ومن الأعماق السوداء كان ينبعث صفير ودوي البخار، ربما أن تلك الحفرة هي منفذ الأمان لتهوية جوف بركان يغلي، وكان زلزال مكسيكو قد تسبب بما لا يحصى من الينابيع الحارة والبراكين التي تنفث الطين. وباختصار فقد كان على رجال مناجم الفضة أن يقطعوا محاولاتهم دون أن يتوصلوا إلى قعر الحفرة. وفي الختام أمر المهندس إغلاق الحفرة لأسباب وقائية وللأمان، وبناء إطار حولها ودق كل ذلك بمسامير وألواح ".

" ولكن لا بد أن يكون اليوم مفتوحاً " فزَّ ألبرتو قائلاً " وإلا لم يكن بوسعهم أن يقذفوا بسجينهم إلى أعماقها ".

" لم يبق سوى بضع ساعات مغلقاً، ثم جاء الهنود في نفس الليلة وكسروا الغطاء وأزاحوه، ولكن المهندس عايش تجربة نادرة، ففي الصباح الرمادي، كان هناك قلاع شديد على نافذة بيته وهو لم يزل تحت وطأة النوم عندما فتح الباب وفوجئ بأنه ينظر في فراغ، إذ لم يكن هناك أحد البتة، وعندما استدار أخيراً ليعود إلى سريره مرة أخرى، مرت حجارة بالقرب من رأسه واستقرت في الغرفة. وعندما رفعها شاهد أن ورقة مربوطة بها، وبدهشة فك الورقة وفضها، وقرأ هذه الكلمات: " السيد المهندس، إذا قمت مرة أخرى بغلق بلعوم الشيطان، فستقع فيه أنت شخصياً. وأنني أعتقد بأن كل شخص يبدي اهتماما بهذه الحفرة الشيطانية ويخبر الشرطة ويجلبهم، سيكون مصيره القذف إلى أعماقها. الناس يقولون بأن الهنود ومنذ قرون عديدة يعتبرونها أداة العدالة الأبدية لهم، وليس بإمكان أي قانون أو الدولة ولا عدالة محاكم أن تحجبها عنهم، فهم يتمسكون بها بشدة إلى أقصى ما يمكن بتقاليدهم الأبدية ".

هز الخال بيتا رأسه موافقاً ومؤيداً " نعم أنت محقة في ذلك، وأنا لا أستطيع أن أسخط على ذلك، فإن هم لم يحتفظوا بتقاليدهم المتوارثة بهذه القوة، فلن يبقى شيء بعد وقت غير طويل من هذه الروائع مما تنجزه أياديهم الموهوبة، ولن يكون بوسع النساء صنع السلال والمنسوجات، أو استبدال أسواق الفخار الملونة في البلاد بالمخازن الحديثة ".

كانت السيدة فوتناو تهز رأسها موافقة، وواصل الخال حديثه " وهنا فاتتني حكاية سمعتها لأول مرة في العالم المنصرم وهي مثيرة جداً، وقبل أيام وقفت على اللغز الكامن خلف ذلك، أو إنني أعتقد ذلك على أية حال، بالنسبة لي فأن شاباً من أميركا الشمالية كان يعدو على الطريق، وكان بمستطاعه أن يكشف الميتة الغامضة للفنان الألماني ـ الأمريكي سمث ".

" هل تقصد حادثة القتل التي أثارت الكثير من الغبار قبل عام ..؟ وإذا أسعفتني ذاكرتي ولم أكن ناسية، فإن الفنان قد قتل على أيدي هنود شامولا Chamula لأنه قام برسم معدات لصناعة الكحول كان المحافظ قد منعها، نعم هكذا كان الأمر بالتأكيد ".

" هذا ليس صحيحاً تماماً، أو بالأحرى إن الأسباب التي أدت إلى الاغتيال كانت بالتأكيد هي غير ذلك ".

" أنك لم تخبرني مطلقاً بشيء من ذلك يا خالي " هتف ألبرتو بانزعاج.

" إن الحكاية هي أشبه ما تكون بأسطورة، كحقيقة بشعة. ومن لا يعرف ذهنية الهنود، فإنه ربما سوف لن يصدقها. إذن فإن سمث الألماني ـ الأمريكي كان قد سافر كما تعلمون ربما سيراً على الأقدام ووحيداً عبر الهضبة الجنوبية شياباس Chiapas مع الشامولا وقبائل أخرى تمت بصلة القرابة لها، وكان راضيا عن ذلك على الرغم من أنه لم يكن يعرف اللغة الأسبانية أو الشاملية، فكان يحمل معه دائماً حقيبة مليئة بالحلويات، يوزع منها بسخاء وكرم عندما كان الأطفال يخرجون لمقابلته. وكان الهنود يضحكون لذلك، فقد كانوا يعتبرونه بنوع ما مجنون لأنه كان يتحدث معهم بالرسوم فقط، ولكنهم رأوا بأنه سليم البنية وغير مؤذٍ، يعطونه مواد غذائية ويدعونه للرسم، واستمر ذلك طويلاً بدون متاعب إلى أن أخطأ سمث ذات يوم، وهو ما كان يمكن حدوثه بسهولة في خلال سيره وحيداً في المرتفعات المكسيكية الجنوبية، إذ لم يعد يتمكن من تسلق الطريق، وحاول بدون جدوى أن يبحث عن مضارب قبيلة من أجل الحصول على

مواد غذائية لأن ما لديه منها كانت في طريقها للنفاذ، وأن يساعدوه أيضاً في الخروج من هذه المنطقة. وأخيراً حدث بعد غروب الشمس بقليل، أن شاهد قرية على القمة العالية للجبل.

وبآخر قواه تسلق ذلك المرتفع وعندما أصبحت أولى أكواخ القرية أمامه، وبدأ يسير في أزقتها، بينما كانت الشمس تغطس خلف الجبل مباشرة، لاحظ بأن الأطفال يلوذون خلف أمهاتهم خجلاً، والنساء يراقبونه بوجوه قلقة ممزوجة بالاستغراب، إذ كان الرجال حتى ذلك الوقت من النهار ما يزالون يعملون في الحقول، فلم يلاقي سوى النساء والأطفال والشيوخ. وقد أحس الفنان بأنه غريب هنا، وكأنه مخلوق قد هبط من كوكب آخر، ولم يستطع أن يعرف، بأن الهنود في هذه القرية منذ أن وجد البشر لم يشاهدوا رجلاً أبيض.

وبارتباك هرعت النسوة إلى أزواجهن في الحقول وأبلغن عن المخلوق القادم من عالم آخر في ساعة الغروب إلى هذه القرية. ولم يفتهم أبلاغ أزواجهن بأن الأمر لابد وأن يتعلق بملاك، فهو طويل القامة ضخم، ولغته ليست من هذا العالم، ويثير لون بشرته بشكل خاص إذ هي تشبه لون بشرة الملائكة في الصور المعلقة في كنيسة لاسكاساس.

وقد هرع الرجال إلى القرية وقد اقتنعوا تماماً بأن الغريب لا يتحدث لغتهم، بل كان أحدهم يتحدث اللغة الأسبانية التي هي لغة الحكومة، فهو الآخر لم ينجح، فالغريب كان يجيب على الأسئلة بحركات من يديه، والآن فقد أتي على دليل يثبت أنه قادم فعلاً من كوكب آخر إذ كان معلوماً للجميع، أن أهل السماء والجحيم يتحدثون بلغة غير معروفة في هذا العالم. وجلس الرجال معاً في حلقة اجتماع وتناقشوا في هذه الحالة الصعبة، وفي غضون ذلك كان قد تم احتجاز الرجل الغريب في صندوق كيزان الذرة وتحت الحراسة.

وبعد أخذ ورد أستغرق طويلاً، أتفق مجلس الشيوخ، بأن هذا الغريب لا يتحدث بلغة أهل العالم، وأنه جاء من جهة لا طريق إليها ولا جسر، وأنه طفا إليهم من الأعماق قادماً مرافقاً لظلال المساء الأولى، فهو لا يمكن أن يكون ملاكاً، لأن الملائكة لا تأتي في الظلام بل في الضياء، وهكذا المخلوق ظهر إليهم في المساء الذي هو بيت الجن والشياطين، ولكن علينا مكافحة الشياطين إذ أنها تجلب الأهوال للبشر، لذلك تقدم الرجال إليه وأجهزوا عليه ".

أنهى الخال حكايته وأعتدل في جلسته متكأً على الكرسي، أما ألبرتو فجلس فاغراً فاه، وكان ينظر إلى الخال غير مصدق، معتبراً أن هناك مبالغة في هذه الحكاية، ولكنه لم يفظي برأيه هذا لأنه لا يريد أن يضع حكاية الخال موضع الشك.

كانت السيدة فوتناو جالسة وهي مستغرقة في التفكير، كان يبدو عليها أنها تعمل بفكرها فيما قد سمعت من أحداث، ثم أنها مالت إلى الخال قائلة: " أنك محق، لابد أن هذا قد حصل على الرغم من أن الوصف الذي كنت قد سمعته إلى حد الآن لا يبدو عليه أنه غير محتمل، إن ذهنية وأحاسيس الهنود تختلف عن تلك التي لدينا وبمقياس كبير ".

3: الطريق إلى آسيا وإلى بيت همبولت

ابتدأ هذا الصباح صحواً في تاكسكو، وكانت أصوات البلابل والطيور المتنوعة تشدو فوق الأشجار المزهرة في الحدائق. وفي بيت همبولت، كانت تتسلل إلى أذن ألبرتو عندما خطا إلى الشرفة وهو ما يزال بثياب النوم، كم كانت الرائحة نقية ..!

وبعد تناول طعام الفطور، خرج الخال وأبن أخته سيراً على الأقدام إلى الطريق. ولم يكن البرتو ليستطيع أن يشبع نظره في لمحات عابرة من المدينة التي كانت فريدة في طابعها الأسباني منذ عصر الاستعمار، وقد احتفظت بها. وبعض الشوارع كانت تضم في كل بيت صائغ فضيات، وكان الخال قد قلب وفتش جميع هذه المحلات وتعامل مع أغلبها حول الأسعار في الورش، وكان قد اشترى أجمل القطع التي يمكن أن يجدها المرء.

" في كل خطوة وشبر، ما زال المرء يجد حتى اليوم نماذج ورموز من عصر الأزتيك، أنظر هنا " ... وأشار الخال بيتا إلى قطعة صياغة في واجهة أحدى المحلات الصغيرة للفضيات، هذا الدرج هنا، ألا يشبه سلالم الأهرام ..؟ " .

أخذ ألبرتو القطعة بيده، وكانت صفيحة منضدة مربعة الشكل، وكان فيها خط ثعباني يصعد ويهبط، بالتأكيد بالإمكان التعرف على شكل درج منها أو أي شيئ على شكل درجات لإحدى الأهرامات التي تجدد الشباب.

" أفاع، سلالم، أهرام، هي رموز الشمس الصاعدة الهابطة عند الأزتيك وأسلافهم في جبال مكسيكو، إنهم يحترمونها كواحدة من أهم آلهتهم، أنها هويتسيلو بوشتلي Huitzilo Pochtli، هي آلهة الشمس الصاعدة، وغالباً، فإن صاغة الفضة والذهب لا يعلمون ما هي أهمية، أو ما يعني النموذج، أو هذا الرمز القديم الذي يستخدمونه.

" أيها الخال بيتا، هل نموذج الدرج يعود إلى زاربا الذي تعلقه على الحائط فوق منضدة الكتابة في بيتك، والجرة الفخارية الذي تضعه السيدة فوتناو فوق رف المدفأة ..؟ ".
" نعم، أنت على حق، وأنك لسوف تقابل هذا النموذج دائماً وأبداً " .

وعندما خرجا من محل الصياغة، قال الخال " ما رأيك بأن نذهب ونسير صعوداً في هذا النمط من الأزقة، فهناك في الأعلى يوجد موقع يطل على مناظر جميلة ".
" كما تريد، فبالنسبة لي، الجو دافئ الآن تماماً، إذا أردت أن أكون دقيقاً ".

ولم يكن ألبرتو يظهر الكثير من الحيوية عند صعود الطريق إلى الأعلى، وقد ضحك الخال وقال: " إن ذلك يحدث عندما يظل المرء يقضاً في الليل لفترة طويلة، وكان من الأفضل لك أن تنام أكثر ".

" إنني أعتقد، أن علي أن أعتاد على عيش المرتفعات، ولا تنسى أننا كنا قبل أيام على البحر في أكابولكو ".

وهنا ضحك الخال فعلاً وقال:" أنك تتكلم كرجل عجوز، إن تاكسكو تقع على ارتفاع 1600 متر فقط عن سطح البحر، ونحن في مدينة مكسيكو تسكن على ارتفاع 2200 متراً ". وقد وجد

ألبرتو أن الموضوع ينطوي على شيئ من الحرج، لذلك فقد قاطعه قائلاً " هذا حسن، لنذهب الآن، أقصد لنكتفي بهذا القدر ".

وعندما أصبحا في مكان مرتفع عن مركز المدينة، توقفا في أحدى منحيات الطريق لكي يتمتعا بالمنظر، كان ألبرتو قد أنشغل خلال صعوده بحرارة الشمس، وكانت البيوت والكنائس متناثرة كلعب الأطفال تحتهم، وكانت الساحة الرئيسية في المدينة غير بعيدة عن الكنيسة الضخمة الرئيسية زاكالو، وقد ميز البرتو مساحة السطح الواسعة وجدران القصر الكبير الذي سكنوا فيه.

" في الواقع، فإن الأسبان القدماء أدركوا بصورة جيدة كيف يشيد المرء بيوتاً جميلة، وأن يؤثثها من الداخل بفخامة ". قال ألبرتو وأستطرد " هل كان البيت الذي تسكن فيه سابقاً في العصر الأسباني بيتاً خاصاً، أم أنه كان يخدم أغراضاً أخرى ..؟ ".

سحب الخال نفساً عميقاً، وأظهرت تعابير وجهه التي لاحظ منها ألبرتو بأن هناك شيئاً مهماً سيقوله بعد قليل، إذ أن الخال كان يحب المقدمات في حديثه والإيضاح إلى أقصى حد.

" يا عزيزي، بهذه ستطول الحكاية، إذا كنت تريد أن أخبرك الأمور بصورة تامة، ماذا قد جرى في القرون المنصرمة في هذه البلاد، ولو بصورة شكلية، البيت خدم كمسكن خاص، ولكن دعني أخبرك بالأشياء بالتسلسل ".

وأشار الخال إلى المرتفعات بيده اليمنى إلى البعيد : " أترى هناك الخط الرفيع في الشارع الإسفلتي خلف آخر البيوت ..؟ ".

أشار ألبرتو إلى اليسار أكثر قليلاً في الجانب الآخر من المدينة، وتساءل" هناك خلف التلال والجبال، يرى المرء جانباً من الشارع إلى مدينة مكسيكو، أليس كذلك ..؟ ".

" بالضبط، وهذا الشارع من البحر فوق تاكسكو، إلى العاصمة يعقب تقريباً طريق التجارة الأسباني القديم، فقد كان طريقاً تجارياً مهماً، إذ انطلاقا من هنا كانت التجارة الأسبانية تمضي إلى شرق آسيا، أنت لا تحتاج لأن تصدقني، فأنا هنا لا أحدثك بالأساطير كما تظن أحياناً، إذن في أكابولكو على المحيط الهادئ(الباسفيكي) كانت لفترة هي المحطة النهائية للسفن المشحونة بالبضائع التي كانت تأتي من اليابان والصين ومانيلا(الفلبين) بعد رحلة طويلة على طول الساحل الأمريكي وترسي هنا، كان التجار يجلبون السلع في طريقهم إلى أمريكا وأوربا انطلاقا من أكابولكو، وذلك باستخدام الخيول والبغال إلى تاكسكو وكانت كلها تقصد أكابولكو، والمخزن الكبير لتلك السلع كان هو البيت الذي نسكن فيه ".

" ومن المؤكد أن البضائع كانت تكدس في الصالة الكبيرة ذات المدفأة، لقد كنت مستغرباً حقاً، لماذا الطالة كبيرة هكذا ..؟ ".

هز الخال رأسه موافقاً، وقال " هنا عليك أن تعمل كمخبر سري، ومن تاكساكو كانت البضائع تنطلق، جزء كمنها، إلى شمال وجنوب مكسيكو، وربما نحو غواتيمالا، ولكن أغلبها كان يتحول إلى فيراكروز على خليج مكسيكو، والآن بأمكانك أن تتصور الكثير ".

" والسفن كانت تأخذ البضائع إلى أوربا، ولابد أن ذلك كان يعني تجارة هائلة، ومن المؤكد أن أرباحاً عالية قد جنيت من جراء ذلك، وأصاب الثراء الكثيرين، وبذلك أمكن بناء هذه البيوت والكنائس " قال ألبرتو.

" ولكن عليك أن لا تنسى، بأن تفريغ وشحن التجارة آنذاك كان يمثل أحد مداخيل السكان، إذ أنهم كانوا يحصلون على أكثر من ذلك من مناجم الفضة، وبعد وقت قصير من احتلال مكسيكو، كانت مناجم تاكسكو ولسنوات طويلة تغطي ثلثي حاجة العالم للفضة، لذلك كان هنا في مدينة الفضة هذه الكثير من الأثرياء ".

" هل كان الأزتيك قبل مجيئ الأسبان إلى هنا قد شيدوا القصور ..؟ فهم كانوا المالكين الوحيدين لمناجم الفضة، وبالتأكيد أثرياء جداً " هكذا طرح ألبرتو تصوره.

" لا، أيها المفتش السري، بالنسبة للهنود كانت الفضة (قذارة الرب البيضاء) كما كانوا يطلقون عليها، عديمة القيمة في مفاهيمهم، ولم يكونوا يتعاملون به، فقد كانوا يصنعون منه الحلي وأدوات الكهنة والملك وللناس الأعتيادين، ولم يكونوا يسعون إلى المعادن الثمينة مثل الذهب والفضة، كانوا سعداء وراضين كل الرضا عندما يتملكون كوخاً والكثير من المحاصيل في الحقول لكي تتمكن العائلة الوفيرة العدد أن تعتاش منها، ولربما أيضاً أن تتبادل بشيئ منها في السوق مع سلع أخرى ضرورية، ولم يكن المرء يحتاج أكثر من ذلك.(لربما أموت غداً) هكذا يقول الهنود حتى الآن، ولماذا يتعين علي أن أمتلك أكثر مما أحتاجه للغد ..؟.

" إنها حقاً نظرة عاقلة، وهي وصفة جيدة للسعادة، وعندما أفكر ماذا أتمنى أكثر من ذلك، وبكل ما أرغب به، آنذاك لن يكون المرء راضياً أبداً ".

أطرق ألبرتو يفكر، وقد أيده الخال في وجهة نظره " إذا كان بوسع المرء أن يعيش هكذا، وبأكتفاء كهذا أو بدون أمنيات ورغبات ..! أنا لا أستطيع ذلك، نحن البيض يختلف أمرنا حقاً، ولكن لندع التفلسف، أريد أن أخبرك شيئاً في الختام، لقد استخدم البيت وخدم إذن لسنوات طويلة كمخزن لسلع التجارة الشرقية، وفقط في القرن السابع عشر أستخدم البيت لواجبات أخرى، وأشترى البناية الكسندر بوردا ملك الفضة في تاكسكو، وكانت قد أصبحت قديمة وأعاد بنائها كدار خاصة للسكن وأهداها إلى أبنه الذي كان يعمل في نفس الوقت راهباً في الكنيسة التي ينفق عليها آل بوردا، وبعد وفاته أصبحت ملكية البناية لأسقف مكسيكو، ولأن المسكن كان قد بني جميلاً جداً فقد جعل منها الأسقف في وقت ما مقراً صيفياً له ".

" ولماذا لم تعد ملكية الدار للأسقف ؟ " سأل ألبرتو ؟

" على مهلك، سيأتي دور كل شيئ، نحن ما زلنا في القرن 18 وبالتحديد في عام 1799، أنك لم تلاحظ هذا التاريخ ..! هنا شد الرحال العالم الألماني المشهور الكسندر فون همبولت (وهو من مواليد برلين)، شد الرحال في رحلة لثلاثة أعوام باتجاه أمريكا الجنوبية والمكسيك من أجل أن يبحث في نظريته، وهي المرة الأولى التي يأتي فيها إلى هذه البلاد عالم ليؤلف كتب رحلات أو ليكتب عن العادات والتقاليد، فقد جلب همبولت معه أدوات علمية، وتفقد البلاد وسم الخرائط وجمع النباتات والحيوانات، وأحتفظ برسوم رائعة لها، وتلك كانت في وقتها مسألة جديدة، وسكن همبولت، ربما أدركت ذلك الآن في غضون هذا الحديث القصير، سكن وهو في طريقه في اكابولكو إلى مكسيكو في المقر الصيفي للأسقف ".

وهنا قاطعه البرتو مرة أخرى: " وهل أن الألماني شهير إلى درجة أن تخص زيارته بالذكر والثناء ..؟ ".

" إنه اشهر ألماني جاء إلى المكسيك يا عزيزي، بل ربما أنه اشهر أوربي إطلاقاً، لقد قدم مساعدة هائلة إلى هذه البلاد من خلال أعماله، إنه لم يتفقد البلاد فقط، بل أنه أكتشف معادن ثمينة أيضاً، وبذلك أسهم بأن تنهض اليوم ثروات طبيعية من الأرض وتستغل ".

" هذا جيد، ولكن كيف مضت الأمور بعد ..؟ ".

" صبراً لقد وصلنا إلى الهدف تماماً، لقد كنا إذن توقفنا عند همبولت، وبعد بضعة عقود من إقامته في مكسيكو حدثت أشياء غير مريحة، إذ بدأت الثورة، وهكذا فقد حدثت هنا أيضاً مراراً صراعات مريرة، تعرضت فيها الكنائس إلى السرقة والبيوت إلى النهب، والكثير منها ذهبت طعماً لألسنة النيران، ولم يكن مسكن همبولت لينال رحمة في تلك الأحداث. وهكذا فقد أحيل مقر الأسقف إلى خربة، كما نزعن ملكيات الكنائس ولم يعد أحد يعتني بها إلا قبل بضعة سنوات حين قامت جمعية همبولت بإعادة بناء البيت واستخدامه جزئياً كمتحف، ومنذ ذلك الوقت وهو يحظى بتكريم الأساتذة والعلماء الألمان تحت أسم: مسكن همبولت ".

" هل هذا كل شيء "، قال البرتو بخيبة أمل، فقد كان يتوقع شيئاً يثير التوتر، أمراً له علاقة بالمغامرات، ومضى كلاهما في السير ببطء، حيث كانا يصعدان طريق الجبل.

" نعم هذا هو كل شيئ " واستطرد الخال قائلاً " ولا في الواقع، بالنسبة لي فإن قضايا التجارة مع شرق آسيا تدور دائماً في ذهني، وأجدها غريبة جداً أن يقوم أسلافنا بالتجارة مع آسيا انطلاقا من هنا: من مكسيكو ".

" لقد كان الطريق الأسهل، إذ لم يكن هناك بعد طريق قناة السويس، فقد كان عليهم خلافاً لذلك أن يدوروا عبر أمريكا الجنوبية وعبر المحيط الهندي، وكان هناك أتفاق بين كلتا الدولتين: البرتغال وأسبانيا، ولم يكن ممكناً خرق الاتفاق " قالها البرتو فخوراً بهذه المعلومات المدرسية التي أدلى بها بهذا المجال.

" معلوم، ولكني أريد أن أشير إلى شيء آخر مختلف، غالباً ما فكرت به، كم كانت السفن الشراعية الأسبانية صغيرة، حقاً شبيهة بقشرة الجوز، وبهذا السفن وصلوا إلى أبعاد كبيرة في شرقي آسيا وأبحروا عبر الباسفيك العظيم، وكان ذلك حتى قبل الاكتشافات، أترى والأمر كذلك، وهو ما يشغلني دائماً، لماذا لم ترسو السفن القادمة من شرقي آسيا في سواحل أمريكا الشمالية (قبل اكتشاف أمريكا)..؟ من اليابان والصين فهم ليسوا بعيدين جداً، وعندما وصل المرء إلى سواحل أمريكا الشمالية للمرة الأولى، كان التوجه جنوباً بمحاذاة الساحل إلى الجنوب الشرقي بسيطاً وحتى الوصول إلى المكسيك ".

" ولكن يا خالي لم يكن بحوزة الناس سفناً كالسفن التي كانت عند الأسبان، كما لم تكن هناك البوصلة ؟.

" هذا ليس صحيح تماماً، لقد قرأت قبل فترة قليلة، بأن في وقت ميلاد السيد المسيح، كانت هناك سفن كبيرة تبحر بين الهند وشبه الجزيرة العربية، والهنود كانت لهم سفرات بحرية منتظمة إلى الصين، والتقارير تعتبر تلك السفن بأنها كبيرة جداً، بحيث أنها كانت تتسع لأكثر من خمسمائة

راكب، على الرغم من أن الصينيين لم يكونوا قد توصلوا إلى البوصلة بعد، ولكنهم كانوا بحارة ممتازين، ألا تعتقد بأن هؤلاء الناس يمكن أن يكونوا قد جاؤوا مرة إلى أمريكا ؟".

" ولماذا يكونوا قد جاؤوا إلى أمريكا بالذات ".

" ولماذا لا يبحرون إلى أمريكا، أقصد من الشمال في المناطق التي تسمى اليوم سيبيريا، من الشرق ليس بعيدا أبداً عن آسيا، وما تحتاجه هو خارطة فقط لإلقاء نظرة ..! " قال الخال.

وفي خلال تعمق الحديث وصلا إلى سوكالو، وجلسا هناك على المصاطب أمام أكشاك الموسيقى " دعنا نجلس هنا أولاً " ومسح عرقه من على جبينه " إنني أشعر الآن بالحرارة، أتلاحظ أنه شيئ غريب، إن أمريكا بأكملها بقارتيها (الشمالية والجنوبية) قد جاء إليها الآسيويون ".

" ماذا ..؟ بالسفن ؟ .. والبحارة ..؟ " هكذا أطلق البرتو سؤاله " هذا أمر لا يمكن حدوثه، فهنا كان يوجد سكان قدماء ..!؟

" ولكن في العصور القديمة، القديمة جداً، لم يكن هناك سكان أصليون، والناس الذين أعنيهم لم يأتوا بواسطة السفن، بل أنهم جاؤا سيراً على الأقدام بزحافاتهم التي تجرها الكلاب عبر المضائق الجبلية في الشمال والتي تقع تحت الثلوج ".

" سيراً على الأقدام إلى المكسيك " ضحك البرتو وهو غير مصدق.

" إذا لم يكن بوسعك أن تكون جدياً، فبإمكاننا أن ننهي المسألة، ولكنك تعرف بأنني لم أخبرك مرة شيئاً غير حقيقي ". قالها الخال وهو منزعج.

كان البرتو بضحكته تلك قد أصاب الخال في الجزء الحساس فيه، وكانت مسألة المستوطنين القدامى إلى أمريكا كانت تثير الخال بصفة خاصة تماماً، وله فيها أفكاره الخاصة، والبرتو أراد أن يعتذر لخاله.

" إنها يا خالي قضايا جديدة تماماً بالنسبة لي، هذا الذي قلته لي، والذي يصعب تصديقه، فكيف حصل كل ذلك ".

" باختصار قبل 12 ألف إلى 15 ألف سنة، لم يكن يعيش هنا في أمريكا أبان العصر الجليدي مخلوقات بشرية، وفي الشمال، كانت الجبال والوديان مغطاة بطبقة كثيفة من الجليد. وبحسب الأبحاث الأمريكية الحديثة، لم تنحسر طبقة الجليد إلا قبل 12 ألف سنة. وفي مناطق السواحل بصفة خاصة، وفي داخل البلاد بدأت النباتات تدريجياً بالنمو. وكانت هناك وفرة من الحيوانات في البراري للاصطياد، كما كانت الأنهار مليئة بالأسماك، وفي هذا الوقت كان هناك أقوام رحل، صيادون وجامعوا فراء الدببة في الجبال العالية والمضائق الجبلية في الشمال، هناك حيث تتصادم أمريكا وسيبيريا تقريباً، سكن أوائل البشر هناك على الساحل الأمريكي للباسفيك ".

" ولأنهم وجدوا الكثير من حيوانات الصيد والأسمال والدببة فقد طابت لهم المعيشة فاستقروا هناك، أهذا ما تقصده ..؟ ولكن كيف جاؤا إلى هنا، إلى جنوب المكسيك، أو إلى جنوب أمريكا ..؟ " سأل البرتو .

" لقد أستغرق ذلك زمناً طويلاً بالتأكيد، والبشر يتنقلون في البحث عن الغذاء طولاً وعرضاً في البلاد، وبعض المجاميع عاشت في الشمال وبقيت هناك، والقادمون الجدد عبروا إلى مناطق أخرى باتجاه الجنوب أو إلى الشرق، وفي يوم من الأيام جاؤوا إلى مكسيكو أيضاً ومنها واصلوا انحدارهم إلى أمريكا الجنوبية، ودائماً ُ كانت هناك موجات جديدة تتعاقب، وهنا بإمكانك أن تتصور الأمر بنفسك، و قد أستغرق الأمر قروناً كثيرة، ولكن كل هؤلاء البشر قدموا من أماكن وأنحاء مختلفة، ولربما أن العدد الكبير للغات هنود المكسيك حتى اليوم هو دليل على الأصول المختلفة لهؤلاء الأقوام، وحتى العهد الأسباني كان هناك قادمون جدد إلى المكسيك من الشمال، ونحن نعلم اليوم بأن قبل حوالي 6 ألاف سنة وصل أوائل البشر إلى آخر ذروة في جنوب أمريكا في بلاد النار ".

" إذن فإن ذلك يعني أن الهجرة من الشمال إلى الجنوب قد استغرقت ... لحظة لنحسبها جيداً ... حوالي 6 ألاف سنة ".

" نعم ... تقريباً كذلك ".

" إنه لوقت طويل، إذن فإن الهنود ليسوا هنوداً البتة ؟..! ".

" إنهم قادمون في الواقع من أورو آسيا (آسيا الأوربية)، أو ربما من التبت أو من منغوليا، وسيبيريا، من يعلم ..؟ ".

" رائع " قال البرتو وهو لم يستوعب الأمر تماماً بعد، فيما كان الخال ينظر إلى ساعته.

" أوه ... إن السيدة فون فوتناو سوف تزعل، لقد تأخرنا على موعد الطعام، ونحن نريد اليوم السفر بعد إلى مكسيكو ".

4 : البالاكيو في مكسيكو

ها هو يوم جديد آخر في مكسيكو. قامت خادمة البيت كالعادة بتهيئة مائدة طعام الفطور بالقرب من غرفة الخال بيتا، وهي لم تنسى أن تضع أيضاً صحف الصباح على المنضدة. وكان الخال قد تناول قدحاً من الحليب الساخن مع القهوة، وأرتشف منها عندما جاء ألبرتو وأنظم إليه على الطاولة، وكان الخال منشغلاً بصحيفة الصباح. فجلس ألبرتو وأنظم إليه على الطاولة وكان الخال منشغلاً بصحيفة الصباح، فجلس ألبرتو بهدوء وسكون، إذ لم يشأ أن يزعج جاره، ولكن بغتة، ألقى الخال بالصحيفة على المنضدة غاضباً وضرب بقبضته على الطاولة بحيث تأرجحت الأكواب وصحونها.

" يا إلهي، هؤلاء الرجال يبيعون ضمائرهم مقابل دولارات رثة ".

فزع البرتو بحيث ارتجت البيضة في يده وسالت على المنضدة، إن خاله يبدو فائزاً وهو لم يره من قبل بهذه الصورة.

" رجاء أقرأ هذه هنا، كيف لا يغضب المرء إذا كان مكسيكياً "، ودفع البرتو بالصحيفة الثانية من الجريدة أمام أنفه قائلاً: " هنا ... هنا ينبغي أن تقرأ ".

وبدأ البرتو يتابع في السطور: تهريب تحفيات في ريوجرانادا، تبادل إطلاق نار مع العصابات، ثلاثة قتلى وجرح شرطي واحد، وقد حاول مرة أخرى بعض عديمي الشرف والعصابات الباحثة عن المال تهريب كنوز نفيسة من قبور أسلافنا الهنود إلى الولايات المتحدة الأمريكية. إن الفخاريات والذهبيات والفضيات كما نعلم، كلها من المدن الأثرية التي لا يعرف عنها المعهد القومي للآثاريات، لقد حان الوقت من أجل أن تتحرك الحكومة بحيوية وتقوم بواجباتها من أجل منع اللصوص من القيام بأعمال كهذه. نحن لا نريد أن تهرب شواهد حضارتنا والتي تعد أهم ما موجود في العالم إلى بلاد أخرى، إنه لشيئ مؤسف حقاً، أن تمتلك متاحف نيويورك ولندن، برلين، فيينا، ميونخ، مجموعات مكسيكية قديمة أكثر مما موجود في بلادنا.

" ها أنت ترى أي صنف من البشر يوجد، وفي كل مرة أقرأ شيئ من ذلك يحرقني الغيظ من وجود عديمي الشرف كهؤلاء، لا بد أن يكون أخيراً هناك إجراءات تمنع نهائياً هذه اللصوصية، إنك تفهم أيضاً الآن، لماذا يمنحون وبطيبة خاطر مبالغ طائلة من أجل مواصلة الأبحاث عن الحضارات القديمة، ونحن نفعل شيئاً مماثلاً قدر الإمكان، ولكننا لا نمتلك الكافي من النقود، لكن الأمر يطول عندنا تقريباً، وما يوجد في المكسيك يجب أن يبقى فيها ".

واستعاد الخال بيبا مرة أخرى شيئاً من الهدوء ومال في مقعده إلى الخلف، والبرتو لم يكن متفقاً معه تماماً في الرأي، وحاول بهدوء أن يوضح للخال بما يعتقده قائلاً: " لقد أخبرتني بأن كل ما قد أكتشف هنا ليس سوى جزءاً قليلاً منها، ويعتقد أنه ما يزال الكثير تحت الأرض(غير مكتشف). والمكسيك ثرية بشكل هائل بالآثار القديمة، لماذا لا يشركون الناس الآخرين بأن يسعدوا معهم بالأشياء الجميلة ..؟ وأنه سيكون لأمر جيد لو يجري استخراجها من قبورها بأسرع ما يمكن، ولما كانت المكسيك فقيرة هكذا، لندع البلدان الأخرى أن تساعدها وأن تنال بعض القطع الأثرية كمكافئة على مساعدتها ".

شعر ألبرتو بأن كلماته لم تكن موضع استحسان الخال، وبدا عليه الغيظ، فهز يده قائلاً " أنك في سنك هذه لا تستطيع أن تفهم، وإنك لست جامعاً للتحف في قلبك وضميرك مثلي .. وما هو مهم أيضاً أنك لست مكسيكياً، وليس قبل أن تتعرف على البلاد جيداً، وأن تحبها بقدر ما أنا أحبها، آنذاك سوف تفهمني. عليك أولاً تسلق الجبال المقدسة، وتجوس أنقاض المعابد الغارقة في القدم وبيوت الكهنة المتداعية، ساحات الرقص واللعب والهياكل ومذبح الأضاحي، وإلقاء نظرة على الوادي العميق، أن تترجل من الغيوم وتغتسل في روزا المتلألئ في شمس المغيب، عندما تدخل بكل جوارح قلبك في هذا العالم الغارق، سوف لن تدعك تفلت منها بعد ذلك، وإنك سوف تتحسر على كل قطعة تغادر بلادنا ".

كان البرتو يستمع صامتاً، فقد كان شيئاً محرجاً له دائماً، عندما يكون شخص في سن خاله، ويبدو رومنتيكياً متحمساً، ولكنه أطاع ما قاله له الخال، بأن يكون في غاية الجدية.

" البرتو .. إنني أرى أن الوقت قد أزف لأن أحكي لك عن الزمن القديم، هل تجد نفسك الآن في وضع مريح تشاهد فيه غرفتي الخاصة " ، وبهذه الكلمات أبتسم الخال مرة أخرى، وغمز بعينيه كأنه يشير إلى شيئ سري، وأردف قائلاً : " أنتظر دقيقة، إنني سأجلب المفتاح، تعال، لا بد أن ترى هذا، أنا لا أدخل هنا إلا أفضل أصدقائي ". واتخذا طريقهما إليها.

كان منزل الخال بيبا بناية قديمة وفق المفاهيم الأمريكية على الأقل، ربما قد شيدت منذ 250 سنة، وفي سعته وفخامته بالإمكان أن يتذكر المرء قصور الأمراء، أكثر من مساكن وفق قياسنا.

وقد جعل الخال بيبا من مسكنه (بلاكيو) كما يسميه، شيئاً من متحف، وكان أحد كبار الموظفين الأسبان في الإدارة قد بناه له ولعائلته، واليوم تستضيف قبل كل شيئ المعرض الدائم للخال، ومقراً لصفقاته التجارية في التحفيات. وكان يدعو ضيوفه وزبائنه وأصدقائه لمشاهدة مسكنه، وكان يفعل ذلك بسرور، وكان من يشاهد تلك النفائس يدهش للكمية الكبيرة التي يمتلكها والموزعة في غرف عديدة مع الكثير من المصوغات.

واستغرقت الجولة ثلاث ساعات كاملة، ولم يكن هناك الوقت الكافي لمشاهدة التفاصيل بدقة كل على حدة، وكانت الغرفة الخاصة وهي نادراً ما كان الخال يدخل إليها أحداً، إلا أصدقائه المقربين، وكان السيد كاسيلاس يفضل دخول الغرفة لوحده لمشاهدة أشيائه التي يحبها.

كان البرتو وخاله قد دخلا غرفة الطعام التي تقع في الطابق الأرضي وإلى الصالة الكبيرة التي تقد في وسط المسكن، ومنها وبواسطة السلالم توصل إلى سائر الغرف بسهولة. وكان الضيوف الذين يدخلون للمرة الأولى خلال الأبواب ذوات الضلفتين، كانوا يدهشون من سعة هذه الغرف، وكان الخال يهتم بهم ويعتني بأن تقام هنا حفلات موسيقية يتسع فيها المجال ل 750 شخص بسهولة، وعندما اجتازا الآن الصالة الكبيرة، قال الخال بابتسامة ذات تنهيدة: " ألا تجد علي أخيراً أن أنفصل عن أشياء كثيرة، أتطلع بعض الأحيان إلى مسكن صغير ومريح، ودائماً عندما أسير عبر هذا البيت الواسع الأرجاء والغير مأهول، يجب أن أفكر، بأن كم هو جميل لو كنا قد عملنا شيئاً آخر غير هذا البيت ".

" ولكنك تحتاج الغرف الكثيرة لتجارتك " قال البرتو.

" نعم، للعمل، هذه هي العقدة، أعلم ذلك .. أعلم ذلك ".

كان البرتو يعلم هذه القصة، ويعلم أن الخال في الواقع لا يفكر في التخلي عن المسكن أبداً، ثم أنه متعلق روحياً بكل خلاياه مع هذه الأشياء التي كدسها هنا والتي يعرفها بدقة من الآلهة في المعرض إلى تماثيل بوذا الصغيرة، فقد جمعها طيلة حياته بحب شديد وبإمكانه أن يروي حكاية صغيرة حول أي قطعة منها.

" أقول لك " قالها الخال وهو يمضي سائراً، يلهث قليلاً عبر السلالم التي قادتهما إلى الطابق الثاني " إذا قمت أنت باستلام كل ذلك مني، فمن جهتي بإمكانك أن تبيع معظمها، ولكن الغرفة الخاصة أبقي عليها، عليك أن تعدني بذلك ".

" نعم يا خالي، أنت تعلم ..! ولكن لماذا تتحدث عن ذلك، فهناك وقت طويل لذلك ".

توقف الخال في المدخل إلى الطابق الثاني وأستند بيده إلى سياج الدرج بقوة " لا تقل ذلك ! أنت ترى أنني قد أصبحت رجلاً عجوزاً، عندما اصعد إلى الطابق الثاني يغدو تنفسي صعباً " قالها ثم تابع صعوده إلى الطابق الثالث.

" ها قد وصلنا ".

والبرتو لم يكن في هذا المكان إلا بشكل عابر وسطحي، كان هناك باب حديدي من صنع حداد، باب ذو قضبان إلى الغرفة التي قاده الخال إليها الآن. " هنا .. البرتو " قالها وأخرج مفاتيح كبيرة، وأختار منها واحداً وضعه في يد البرتو " أفتح، أنا لا أستطيع الرؤية جيداً، وينبغي أن يؤسس هنا مصباح .. هنا فوق، خذ، عيونك أفضل من عيوني ".

وفتح البرتو الباب ذا القضبان وقال: " إنني متوتر بشكل فضيع يا خالي ".

" آمل بأنك لا تنتظر الآن رؤية كنز الأزتيك، إنك ستجد مجموعة يتعلق بعها قلبي أكثر من جميع قطع بيتي الكبير ".

وبهذه الكلمات، سحب الباب الحديدي، وتلمس بأصابعه بحثاً عن زر الضوء، فسقط ضياء معتدل من السقف، ضوء غير مباشر، وكان البرتو في غاية التوتر بما كان ينتظره، تطلع البرتو بفضول، ولكن الغرفة كانت فارغة تقريباً، ولكنه شاهد فقط مناضد بقرب الجدار، وقد وضع فوقها أشياء رائعة في عصر ما قبل كولومبوس، ومن لمحة واحدة أدرك، أن الأمر هنا يدور عن مجموعة نادرة من نفائس فنون الهنود القدماء.

" أترى ..! هذه هي كنوزي، أنا سأقول لك أيضاً، لماذا نادراً ما أجلب أحداً معي إلى هذه الغرفة، أنا لا أريد أن أقلق أو أزعج أحد زبائني، إذ كل من زار هذه الغرفة حاول لفترة ما وبكافة الوسائل أن يشتري هذه أو تلك من القطع. وأنا أولاً وأخيراً تاجر للتحف، علي أن أضرب صفحاً عن هذه المحاولات والتوسلات، إذ أن هذه المجموعة يجب أن تبقى سوية، وأنا قبل كل شيئ لا أريد أن تخرج واحدة من هذه القطع إلى خارج البلاد ".

غرق البرتو في مراقبة المعروضات فوق الطاولات، دون أن يفهم كثيراً عن الأشياء، ولكنه أستطاع أن يلاحظ أن الخال قد جمع هنا نماذج من حضارات مرتفعات المكسيك ووضعها على المناضد حسب تسلسلها التاريخي.

" أنظر هنا " وحمل الخال من المنضدة التي في أقصى اليسار، تمثالاً صغيراً ذا لون أخضر / بني. " هنا لديك مثلاً شيئاً خاصاً جداً، تمثال للآلهة يادا، وهذا عمره 2000 سنة. والخصوصية فيه، أنه معمول من حجر شبه كريم، وهناك موقعين أثنين فقط في العالم تعمل تماثيل كقطعة للزينة، أو كتماثيل للآلهة: في بحر الصين، وفي جنوب خليج المكسيك بالقرب من أماكن الأولميك (Olmek) ، نعم أن الأوليميكيين كانوا أول من أستخدم اليادا في المكسيك، ومن ثم كل حضارات الشعوب بعدهم والتي أعقبتهم: المايا في الجنوب، وما لا يحصى من الشعوب في الشمال، إلى الأزتيك الذين عملوا بعد الأولميك في هذا الحجر الكريم. أنظر إلى هذه القطعة بإمعان، هل ترى ينقصه شيئ ..؟ ".

قلب البرتو اللعبة الحجرية، المساحة الضئيلة فيه كانت تلتصق باليد، كانت أقدامه قصيرة ورأسه الكبير المدور يذكر التمثال بصورة رضيع من الآلهة. الشفة العليا مفتوحة قليلاً، ليظهر الفم بعض الأسنان الصغيرة. وقد لفت نظر البرتو إلى أن العيون كانت منحرفة(مائلة) وذراعيه ممدودة وذلك يسهل مشاهدة التمثال من مسافة بعيدة. لماذا منح الأولميك الآلهة هذا الوجه الطفولي ..؟ وزاوية الفم المنحرفة ..؟ غريب ..! تذكر البرتو تمثالاً صينياً لبوذا، شاهده مرة في سان سباستيان، آنذاك عندما كان يتطلع في مجلات التحف والآثاريات من أجل أن يستعد لحياته الجديدة في المكسيك، أراد أن يقول لخاله بأنه تذكر تمثال بوذا، ومن المؤكد أن خاله سيضحك عليه. " لا أعلم، ولكن الأمر يبدو تقريباً يشبه الصينيين أو ربما شخص من الاسكيمو ".

تطلع ألبرتو إلى خاله بلمحة تساؤا، والمفاجأة ألقت بضلالها على وجهه " أرى أن لديك توجهات جدية، وهذا يسعدني، لقد تعرفت وأدركت أشياء جوهرية " قال الخال.

لم يكن ألبرتو يدرك أي شيئ نفيس يحمل بين يديه، ولكنه شعر باللغز السحري الذي ينبعث من هذا التمثال. أخذ الخال بيبا التمثال منه وسأله: " يا ولدي هل أعجبك تمثال يادا..؟ ".

هز البرتو رأسه موافقاً وهو يفكر بعمق " لا بد أن تاريخه يعود إلى أكثر من 2000 سنة " ولم يشأ أن يصدق ذلك .

" بتلميعه يبدو جديداً وكأنه قد أنجز بالأمس فقط " قال ألبرتو.

" وقد ظل 2000 عاماً لم يلمسه أحد في صندوق حجري مودع في الأرض ".

" وهل من قبيل الصدفة أن يكون له وجه وملامح صينية ؟ ".

" لقد قلت لك، الشيئ السحري واللغز في هذا التمثال، والتي تحيط بالبشر الذين أنجزوه، ربما أن الأولميك هم أول وأقدم شعب ثقافي في المكسيك، ونحن لا نعلم سوى القليل حول أصولهم(حالياً على الأقل) والباحثون يشغلون أدمعتهم لجلاء ذلك فيما إذا أنهم أحرزوا تقدماً حول نازحين جدد أو معطيات عن القدرات التي تجعلهم يقدمون على أعمال رائعة كهذه، لربما أنهم قد جاؤا بطرق مباشرة من آسيا ".

" بالتأكيد من الصين، هذتا رائع ". وجد ألبرتو نفسه منفعلاً فكرياً وثقافياً.

أبتسم الخال وقال" هل فهمت الآن، لماذا لا أتخلى عن فكرة البحارة الأسيويين، ربما من مناطق تعود اليوم للصين ومنها جاؤا مباشرة إلى المكسيك ".

" إذن بالسفن ..! " قال ألبرتو.

" من يعلم ..؟ فالاكتشافات الجديدة في مناطق الأولميك تجعل الاعتقاد حول ذلك ممكناً ".

" أحك لي عن ذلك يا خالي رجاء " قال البرتو برجاء.

أشار الخال بيده قائلاً " فيما بعد، لا نريد أن نبدأ مع الأشياء الصعبة، في البدء أريد أن أوضح لك، أن الأشياء التي ستشاهدها عدا هذا التمثال للوجه الطفولي للأولميك " ثم توجه إلى المنضدة الكائنة على يمين المدخل.

" هنا تجد التاريخ أحدث، إنه العصر الأزتيكي، وهذه اللقى (التحف الأثرية) وجدت في أرض العاصمة وفي ضواحيها القريبة، وإنها ليست قديمة جداً، ربما تعود إلى 600 سنة. الأشياء القديمة هي إلى الجانب الأيسر وبها تجد كل شيئ من مناطق المرتفعات المكسيكية والتي هي مهمة. ومن أجل فهم أفضل، فقد وضعت لوحات على الجدران مدونة عليها اسم المنطقة التي استخرجت منها وأي شعب تخص ".

وقد تابع البرتو هذه اللوحات فوق المناضد من اليمين إلى اليسار، وهكذا نمضي دائماً إلى التاريخ الأقدم.

" نعم، الأزتيك Aztek والتولتيك Toltek وتيوتيهاوكان Teotihaucan المناطق المركزية، أي كل شيئ حول مكسيكو، وإلى جانب المناطق الجبلية ". ثم مضى يواصل القراءة " وأنحاء أواكساكا Oaxaca وميكستكن Mixtek، زابوتيك Zapotek، وهنا ساحل الخليج: أولميك، وإلى أقصى اليسار أرشايكوم Archaicum، والآن ماذا تعني كل هذه الأسماء كمفردات..؟ ".

" على مهلك، سيأتي دور كل شيئ، وإلا فإننا سنخلط الحابل بالنابل، وعدا ذلك سيكون الموضوع صعباً، كما أن عزلها صعب أيضاً، لنبقى أولاً مع الأزتيك، أنظر بدقة إلى هذه المجموعة، أتجد هنا شيئاً ما سبق لك مشاهدته ..؟ ".

وصل البرتو إلى تلك المنضدة، وبين أشياء كثيرة، كانت مطروحة هناك، لاحظ وجود ملعقة كبيرة وغليون فخاري، ورأس ذي تاج، وتماثيل فخارية. ولكن أنظاره تعلقت بصورة ربما يصل ارتفاعها إلى 30 سنتمتر، صورة للإله ذي رأس كلب، وأشار إليه البرتو قائلاً: " أليس هذا هو نفس الإله الذي كان موضوعاً في بيت همبولت في تاكساكو، ماذا كان يسمى .. أكسو ... أكسو " كامن يبحث عن الكلمة.

" صح، كسلوتل Xolotl وكان واجبه حمل الشمس في الليل إلى العالم الأسفل، ولكن أريد الآن أن أعلم لماذا منح رأس كلب ..؟ ".

" من أجل الإجابة على ذلك، يجب علينا أن نهتم قليلاً بمعتقدات الأزتيك، فهم يعتقدون، ان الشمس تتأمل كل ليلة في مملكة الموتى وتعاني من قدر الموتى قبل أن تصعد مرة أخرى في الصباح التالي في الأفق. إن قدر البشر الذين ماتوا ميتة طبيعية، ونحن سنتحدث عن هذا فقط، لأن مجلس الموت يقررون الحياة بعد الموت وبسرعة، ولكن عليهم أن يعيشوا فوق تيار الحياة السفلى في ظلمة أبدية والتي لا سبيل للفرار منها، والبشر الذين يموتون، يدفن معهم في القبر

أثمن مرافق لهم وهو الكلب لكي يحرس سيده ويرافقه. وعند الموت الذي يلاقيه الشمس كل يوم، يجري ذات الشيئ الذي يجري بصورة مصغرة على الأرض، والكلب كسلوتل الإله الذي يحمل وجه كلب يحمل الشمس على ظهره في العالم السفلي، وبهذا القدر يمكن إيضاح أهمية هذا الإله ذي الوجه غير الطبيعي ".

رفع البرتو تمثالاً صغيراً ليمعن النظر إليه " لماذا منح الأزتيك للكلب بالذات هذه المهمة، كان بالإمكان تسمية الحصان كحيوان حمل للبشر، والحصان يحمل أكثر بالطبع، كما أنه أكثر قوة وأجمل وأسرع ". كان الخال يهز رأسه.

" مستحيل، يا عزيزي، إن الهنود لم يكونوا يعرفوا الخيول، والحيوان الوحيد الذي كانوا يحتفظون به في بيوتهم ويستخدمونه في الحمل كان الكلب، كما هو الحال حتى اليوم لدى الأسيكيمو في شمال أمريكا. وقد رافقتهم الكلاب في الطريق من الشمال، وكذلك عبر الثلوج والجليد، عندما نشأت الحاجة إلى البحث عن مناطق الصيد ".

" ألم تكن الحمير والماعز قد وجدت بعد أو الأغنام ؟ " سأل البرتو.

" كحيوانات مواشي (مدجنة) كان هناك فقط الديك الرومي والكلاب ".

" عندما يرى المرء كما يبدو اليوم على الهنود مع حيواناتهم من الحمير، وكيف أنها ملائمة لهم في الشوارع والطرق، لا يمكن التصور فعلاً، لقد كنت أعتقد أن الحمار المخلص يكفي، وهو الذي يحمل كثيراً ويتسلق الجبال العالية وهو دائماً مرافق لوجود المكسيك ".

وأردف الخال معقباً وضاحكاً " وكذلك الأكواخ المصنوعة من لحاء الأشجار التي تعود في أصلها إلى أسبانيا، كالحمار، ولكن لندع هذه التفاصيل وإلا فإننا سوف لن نخرج من هنا، من هذه الغرفة بالمقارنات والحالات الخاصة، إنني أريد وبسرعة أن أعطيك لمحة تستفيد منها من أجل الدقة في ملاحظاتك ومشاهداتك، ولكي يمكنك بعد ذلك أن تعمل بنفسك في هذا المجال بدون مساعدتي ".

كان الخال ـ محاطاً بكنوزه الأثيرة ـ قد أكتسب وجهه علامات الارتياح والمزاج الرائق، وقف في وسط الغرفة، ثم منح وجهه علامات الجدية المبالغ بها، وبدأ وقد غير من لحن صوته وكأنه يحادث أناس غرباء.

" سيداتي وسادتي الأعزاء: دعوني أوضح لكم، أقدم الباحث الهادئ كاسيلاس، إن هذه المجموعة وهي تعد قديمة جداً، سيداتي سادتي: تجدون الأزتيك الذين كانوا آخر القبائل الرحل وكانوا قد نزحوا من الشمال عام 1200 ميلادية، واستوطنوا الوادي العلوي في المكسيك. وفي عام 1370 أسسوا عاصمتهم تينو شتيتلان Tenochtitlan، على جزيرة وسط أحدى البحيرات، والبحيرة اليوم قد اختفت، وقامت مدينة مكسيكو على أنقاض مقر إقامة الأزتيك وعلى قعر تلك البحيرة.

وختاماً سيداتي وسادتي، فإنكم تجدون عند الأزتيك آثار أسلافهم تولتكين في الوادي المرتفع، وهذا الشعب كان قد جاء أيضاً مهاجراً من الشمال عام 800 ميلادية، وكان عهدهم المزدهر في القرن التاسع الميلادي.

وقد مارس التولتكين السيادة في المنطقة، وتجدون إلى اليسار المزيد من اللقى في المدينة العجيبة تيوتيهواكان Teotihuacyn . والحضارة التيوتيهواكانية كانت قد ازدهرت قبل وصول التولتكين وهرم الشمس العظيم التابع للتيوتيهواكارنيون الذي هو مرة ونصف بحجم هرم خوفو في مصر الذي يوصف دائماً بأنه الهرم الأعظم في العالم، كان قد تم بناؤه والفراغ منه عام 200 ميلادية، وإذا كنتم لم تروه لحد الآن، فبالإمكان رؤية صورة التقطها السيد كاسيلاس ولربما كان التولكانيون هم الذين هدموا مدينة المعابد الرائعة تيوتيهواكان في القرن الثامن الميلادي. إذن سيداتي سادتي، فإن التيوتيهواكان كانت موجودة على الأقل للفترة من 200 - 800 ميلادية.

والآن، فالمناضد التي تليها هي تابعة لحضارة الوادي المرتفع في الجنوب، في مدينة أوكساكا Oaxaca على مسيرة يوم واحد سفر بالسيارة إلى الجنوب من مدينة ميكستيك Mixtek ، وعصر الازدهار الرئيسي كان 1000- 1400 ميلادية، أي تقريباً في نفس الوقت مع الأزتيك.

وتابعوا إلى اليسار رجاء سيداتي وسادتي، فستجدون جيران الميكستيك وهم الزابوتيك Zapootek، وكانت حقبة رائعة أمتدت من 500 وحتى 1000 ميلادية، إنكم تشاهدون هنا صوراً عن ساحة تقديم التضحيات الكبرى وكذلك ساحة الصلاة للزابوتيكيين والميكستيكيين على مونتا البان Monta Alban، وهذا الجبل المقدس يقع على بعد 600 كيلومتر إلى جنوب مدينة مكسيكو بالقرب من مدينة أواكساكا، وهذه الصور تظهر جمال مساحة المعبد على قمة جبل مونت البان.

والآن سيداتي سادتي، هناك خبر مثير: السيد كاسيلاس هو المالك للعبة الياتا (المار ذكرها قبل صفحات ـ المترجم) للأولميك الأسطوريين. وهذه اللعبة هي من عهد 750 ميلادي، وقد وجدت في صندوق حجري في لافينتا La Venta، والأولميكيون كانوا ذوي تأثير ونفوذ على كل الحضارات التي جاءت بعدهم، وهذا الشعب الرائع المدهش أسس عصره المزدهر قبل وبعد ميلاد المسيح. شكراً لتصفيقكم سيداتي وسادتي ".

وقد صفق البرتو بقوة، ولكن الخال لم يكن قد أنهى دوره بعد.

" وفي الختام، أود سيداتي سادتي أن أتحدث عن اللقى من العصور المبكرة، ال: أرشياكوم Archaikum، كما يقول الأساتذة، وهي إلى اليسار تماماً، ألفت انتباهكم إليها، إنكم تجدون هناك آثاراً من بشر كانوا قد عاشوا 1500 قبل الميلاد في الوادي المرتفع. وجزء كبير من هذه الآثار تعود بأصلها إلى النزوح والتي كانت بقاياها موجودة حتى 10 متر تحت ركام بركاني في بيدريكال Pedregal وأنتم تعلمون أن بيدريكال هي اليوم أحدى ضواحي مكسيكو المعروفة، وفيها أحدث جامعة في العالم، وبذلك فإن الجولة قد انتهت، ولأسئلة تفصيلية إضافية أنا على استعداد سيداتي سادتي لخدمتكم مجاناً ".

" شكراً، أيها السيد والآن دعني أشاهد القطع بالتفصيل ". قال البرتو.

وتابع الخال لعب دوره " للأسف، فإن معلومات دقيقة كهذه لا يقوم بها سوى المالكين لها والذين هم حالياً مشغولين بأعمال أخرى ". ثم عاد إلى نبرة صوته الطبيعي وقال " دعها إلى مرة قادمة فذلك أفضل، حيث يكون لدينا وقت أطول، فإن علي أن أهتم أيضاً بتجارتي، وأن أدعك لوحدك، وإن شئت، أنظر إلى هنا بكل روية ..! ".

وتعكر وجه البرتو، فقد شعر أنه أتعب خاله.

" إني أريد أن أقترح عليك، ابدأ أولاً بالأزتيك، فنحن نعلم عنهم أكثر من غيرهم، وإني أعتقد، بأن هنا شيئ لك، فقبل وقت قليل كنت قد كتبت سلسلة مقالات لصحيفة أكسلسيور حول حياة الأزتيك. تمهل لحظة رجاء، فإنك يمكن أن تراها هنا، وإني أعتقد بأنك سوف تحصل على الكثير إذا قرأتها بهدوء وروية ". ثم سحب الخال ظرفاً كتب عليه (الأزتيكيات)، وكان ظرفاً سميكاً يحتوي على قصاصات جرائد.

" هنا، أقرأ، هذه جيدة، وبعدها ستعرف الأهم، وبإمكاننا تجاذب أطراف الحديث حول ذلك بالمناسبات، وبهذه المناسبة فإننا سنقوم في عطلة نهاية الأسبوع القادم بجولة إلى المعابد الأزتيكية والتولتكن، وربما نستطيع الذهاب أيضاً إلى تيوتهواكان ".

وهنا أشرق وجه البرتو مرة أخرى " ممتاز، يا خالي، شكراً جزيلاً ..!" .

وبسبب السفرة قام البرتو بتحضيرات لها، وقد بدأ في غرفته بكتابة مطالعات عن المعلومات التي أدلى بها خاله.

5: عالم الأزتيك

آ . تقويم جديد بدأ

هبت رياح باردة من البراكين المكللة بالثلوج فوق الوادي المرتفع للمكسيك، وكانت أمواج بحيرة تاكسكو تضرب برتابة وانتظام شاطئ البحيرة.

تينوش تيتلان ـ تلالتيلوكو Tenochtitlan – Tlalteoco، ملوك أمريكا، عاصمة المملكة الأزتيكية، تمتد كميت في ضوء الشمس المغيب، ولم يكن هناك إلا الموكب الذي يتحرك على السد الذي يربط الجزيرة بالمدينة على البر، وكان الموكب يتحرك باتجاه المدينة

يكتب في أوربا 18 / كانون الأول ـ ديسمبر / 1507، وفي المكسيك، فقد أنتهي في هذه الليلة التقويم القديم. فقبائل دولة الأزتيك وجيرانها الملتزمون بدفع الضريبة لها، خشيت على مصير الشمس إذا عادت ودارت دورة السحر 52 عاماً. وكان كهنة المعبد الضخم قد أطفوا لهب النار المقدسة على سطح المعبد الرئيسي، ثم أنهم هبطوا ببطء وباحتفالية، الدرجات ال114 إلى الأسفل متجهمين في جلابيبهم السوداء، وكانت البقعة الحمراء على الصدغ تدل على تقشف الجسد الذي كانوا ملتزمين به، وهي عبارة عن صبغة ولكنها تبدو كالدم بيد أن الرجل الذين تفوح منهم الحقارة وروائح دماء الضحايا، لهم شعر طويل لزج، معلق من قمة الرأس بخصلات سميكة، هؤلاء واقفون على سلالم الهرم، ثم يلوذون بالصمت في صلاة.

ومن الشوارع العريضة والساحات الداخلية لمدن المعابد، يأتي كهنة آخرون وهم أيضاً لهم ما يتجهون إليه في عبادتهم من مقدسات، وأمام سقالة تضم جماجم موتى أكثر من 136 ألف ممن قدموا كأضاحي للآلهة، يجري الموكب: الكهنة الكبار لآلهة الصباح، ثم يقدمون الأضاحي. وقائد فرقة الرقص، ثم عازفوا الناي، ثم المنادون، وخدم " الشمس في ذروة السماء " ثم خدم وخادمات آلهة الأرض، وأله المطر، وعدد لا يحصى من آلهة الأزتيك على هيئة حيوانات.

والآن يسير الجمع في الشوارع، ولكن لا تسمع لأقدامهم وقع، ثم تأتي ضجة سريعة من جهة أخرى، من أناس يحملون مخلوقات سوداء على ظهورهم، وكذلك الحبوب والتبغ والكلس والصمغ والأعشاب التي تستعمل كبخور، إذا أريد للشمس أن تعيش أكثر.

وكانت الشوارع التي تبدو زاهية الألوان في المدينتين العامرتين بالسكان، التي تبدو شبه ميته، وهناك فقط بعض الجنود يقومون بالحراسة أمام البيوت التي أحتجز فيها النساء والأطفال. ولم يكن هناك دخان ينبعث من المداخن ومن أماكن إيقاد النار، ولم يكن أحداً يحضر الخبز، وليس من يحضر الطعام (الفاصولية)، فالنار مطفئة في البلاد، إذ أن الجن والعفاريت قادمون في الطريق والأرواح الشريرة لديها اليوم سلطة أكثر من ذي قبل في 52 عام، ولهذا السبب، فإن المرأة الحامل تعامل باحترام وتقدير وذلك بجلوسها على مقاعد كبيرة من الطين والفخار ومحشوة بعيدان الذرة، ويلقى اليوم على عاتق الكهنة واجب إدامة العالم، وبفضل فنهم وقابليتهم فقط وعملهم سوف يستمر بقاء العالم.

يتحرك الموكب فوق السد الذي يربط جزء من هذه المدينة بالجزيرة، وعندما يصلون إلى الشاطئ، تغطس الشمس في المغيب، والآن ترقص الأرواح في التقاطعات، ولكنها لا تستطيع أن تلحق الضرر بالكهنة المطلعين على المعرفة والأسرار، إنها ليست بعيدة عن موقع الأشجار.

وهناك صنف من رجال الشعب في الانتظار وهم يرتدون الأقنعة المصنوعة من صفائح تحميهم من سلطة الظلام ومن الخوف أيضاً، وهل غرقت الشمس في جوف الأرض..؟ هل سيكون لها القوة الكافية .. من أجل القيام بالرحلة عبر العالم السفلي هذه المرة أيضاً ..؟ بدأ الرجال بالتقدم سوية على الأقدام إلى جبل هويكساشيكاتل Huixachtekatl . وهبت ريح مثلجة على الوادي، وكانت النجوم تتلألأ متعبة وباردة في السماء السوداء العميقة الغور، وكان الرجال يتلاحقون مع بعضهم من البرد والخوف والرهبة.

وهناك فوق قمة الجبل المسطحة، وصل الموكب إلى هدفه، عالياً فوق الأبخرة المتصاعدة من الوادي السحيق، تابع الكهنة مسرى نجوم الثريا، ساحة " سوق المدينة " كما يسمونها، وكانت مراقبتهم للنجوم (بالعين المجردة). وسرعان ما وصلوا إلى الذروة. ومن فوق رفوف العيدان تتابع أنظار كبير الكهنة حركة النجوم، ثم بدأت الصلاة. دمدمة بصوت منخفض، ثم ساد الصمت حتى أن الريح همدت فجأة، كما لو أن العالم حبس أنفاسه.

هل سيستمر ذلك إلى الأبد ..؟ هل سيتمكن الجن والعفاريت من ابتلاع ظلمة الأرض ...؟ هل هم فعلاً في طريقهم إلى القدوم ..؟ هل أن الشمس القريبة من الأرض قد أصبحت هيكلاً عظمياً من الهزال في مملكة الموتى ..؟ وكانت قلوب الكهنة تقرع حتى تصل إلى رقابهم، إن لحظة الحسم قد حانت، وهنا يرفع قارئ طالع النجوم يده ثم يخفضها باتجاه الشرق وينحني بها إلى الأرض، وتلك هي الإشارة إلى الكهنة بأن العالم سوف يولد مرة أخرى، ويقدمون التحية لبداية العصر الجديد ثم يبدأ الكهنة بالغناء بصوت عال.

ويتقدم العرفاء (المساعدون) يقودون الضحايا ذوو الوجوه البيض وهم يسيرون طائعين صوب صخرة التضحية. ومن الوجوه المصبوغة باللون الأبيض تلمع عينا التضحية، إلى القمة حيث هناك النار وقد تدلت الآن نحو الأسفل، والعرفاء يسحبون جسد الضحايا على ظهورهم فوق الصخرة، وأربعة من الكهنة يتشبثون بقوة بأيدي وأرجل الضحية إلى الصخرة، ويدخل الكاهن السكين الحجري في صدره، بينما يمد كاهن الضحايا يده ويلتقط القلب ويرفعه إلى السماء، وتحصل المعجزة إذ تنبثق النار من الجن والعفاريت من الحفرة في صدر الضحية، ومع ارتفاع النيران واللهب، يولد العالم من جديد.

ويرفع الجمهور المحتشد تحت أقدام الجبل أنظاره إلى القمة، ثم تنطلق صرخة احتفالية وتبدأ المسيرة إلى العاصمة، وتشتعل نيران جديدة في الجبل. فينطلق العداءون يحملون الشعلة إلى كافة أنحاء المملكة وبشارة بقاء العالم 52 سنة أخرى، الشعب يبدأ بحرق ملابسه، إذ أن كل شيئ لابد أن يكون جديداً، والكهنة ينادون الناس للعمل في المعابد وقبة السماء قد تجددت، فالآن فإن المعابد ذات السلالم تحتاج أيضاً إلى صورة قبة السماء، ومعطف جديد، والشعب كله يحمل الحجارة ويملأ منها أكياساً من القنب من أجل إعادة إعمار الأهرام لحقبة جديدة، وهكذا كانت تنمو الأهرام كل 52 سنة ..!

ب . البشر يساعد الأفلاك

تقع شتيتلان على ارتفاع أكثر من 2200 متر. وعندما تشرق الشمس من الشرق، وتصعد فوق ذرى البراكين العملاقة المكللة بالثلوج، وتتطاير مع الرياح في القمم ندف من الثلوج وتجعل منها ستارة أمام الشمس المشعة.

هكذا أظهرت من بدايتها البشر شاحبين وعديمي القوة. والرحلة في العالم السفلي قد أتعبت الشمس وجعلته ضعيفاً، هكذا كان يعتقد، ثم ينبغي عليها (الشمس) عندما تغطس في المساء إلى أعماق الأرض، فإنها تعيش من جديد مصير وأقدار الموتى. وفي كل صباح تتحول إلى هيكل عظمي عندما تغادر باطن الأرض وهي لا تستطيع أن تستعيد قوة إشعاعها التي تمتلكها، وإذا ما أريد لها أن تصعد إلى أعالي السماء، فذلك لن يكون إلا إذا ارتوت من الدماء وقلوب الضحايا، والبشر على الأرض ليسوا سوى ممثلين للنجوم.

وبحسب معتقدات الأزتيك، فإن البشر في مصائرهم وأقدارهم، لهم صلات متبادلة مع الأفلاك: النجوم تفرز مصائر البشر، وكذلك يقع البشر في قدر الأفلاك. وبالإمكان رؤية كيف أن الشمس في الصباح تضرب سماء الليل ومعها عدد لا يحصى من النجوم في السماء. إذن سيكون جيداً وعادلاً إذا كان البشر(وهم ممثلي النجوم على الأرض) أن يضحوا للشمس الذي بوسعه أن يعيش عندما يموت سماء الليل مع نجومه.

إذن فالأزتيك كانوا يضحون بالبشر من أجل إدامة وظيفتهم كسعاة للسماء، وإعادة القوة من خلال الدم وقلوب الضحايا إلى آلهة الشمس هويسيلوبوشتلي. وفي عام 1487 حسب تقويمنا الميلادي، جرت الاحتفالات العظيمة على شرف الآلهة في تينوستيتلان، المعبد الرئيسي كان آنذاك تحت الإدارة المباشرة للملك آهويتسوتل Ahuizotel، سلف الملك موكتيسزوماز Moctezumas، واستغرقت احتفالات التضحية أربعة أيام، وفي الأيام الأربعة هذه، كانت رائحة الدم تفوح ساخنة من هذه المدينة العملاقة، والعاصفة الحمراء كبرت فوق الطبقات العليا البيضاء بلون الثلج للأهرام، وقد فارق الحياة ما لا يقل عن 20 ألف إنسان من الشمس والآلة.

كان الضحايا يقفون طائعين مستعدين لمصيرهم، نعم كانوا سعداء للحظة التي ستتحرر فيها أرواحهم من أجسادهم وتضع الشمس في طريق الصعود إلى الذروة. وفي حوالي الظهيرة، سيكون يوماً بعد يوم وإلى الأبد مثل عصافير الجنة أو الفراشات، تلعب في حدائق الجنة حول الزهور الرائعة. لقد كانوا في يوم ميلادهم أم من خلال المصير الذي قد تحدد في سير القتال، أن يؤخذ أسيراً، وأن يموت بالتالي كضحية. ونوعية الموت كانت امتيازاً، إذ أنها تعني البشارة للإنسان في حياة الجنة وعالم آخر.

كان الطبالون والنافخون في الأصداف، والسحرة والمشروبات المخدرة، وطريقة ارتداء الملابس، كل هذه تضيئ للأسرى في العالم البعيد، وهكذا كانت تلتمع في عيونهم النشوة في ذلك الليل البهيم. وكان كل واحد منهم يشعر بأنه مع أخوته كهنة التضحيات، الذين كانوا قد ظهروا في الصباح الباكر من أجل القيام بمراسيم الملابس مع الأسرى الضحايا. الوجوه يجب أن لا يغرب عن البال، ينبغي أن تصبغ بالسواد كالليل. وفي الشعر تدس كريات من الريش، أو ندف من القطن، ثم ينبغي عرض كل شيئ للنجوم، أجساد الضحايا لفينوس وكذلك لنجمة الصبح. وجوه الضحايا سوف تصبغ بالأبيض، وسوف يرتدون ملابس بيضاء كرمز للفجر وبزوغ الشمس والموت. ويحمل الضحايا في أيديهم علماً إشارة على التضحية بالموت، وكحرس للآلهة الشمس الذين سيصبحون هم أقماره قريباً.

وعندما وصل الأسبان وقدامى الصينيين إلى المكسيك، وقد سمعوا عن التضحيات بالبشر، ثم أنهم شاهدوا بأم أعينهم ووثقوا بأنهم قد حلوا ببلاد قد أسس حتى الشيطان فيها سلطة له. ولم يكن بوسعهم أن يفهموا لماذا يجعل الهنود لآلهتهم رؤوس بشر، وبعدد كبير، ولم يكن الأسبان يعلمون بأن الأزتيك يفعلون ذلك بسبب قناعتهم حول استمرارية وجود العالم. حتى مع أن

غالبية الضحايا ارتضوا مصيرهم وقدرهم فوق صخرة التضحيات تطوعاً، وهكذا سرعان ما أصبح ذلك واجباً صعباً في إيجاد البشر من أجل قتلهم (تضحية) من أجل الآلهة.

وتصاعدت شراهتهم وصار إلزاماً مقدساً في إخراج الشمس من خلاب التضحيات من مهرجان إلى مهرجان وأغلب الظن بأن الأزتيك يخوضون حرباً من أجل الحصول على أسرى للتضحية بهم، والحرب كانت التزاما دينياً، ومن خلال خوضها بنجاح سيكون بالإمكان تأمين متطلبات الآلهة. وهكذا فإن الجندي الذي يجلب الأسرى سينال شرفاً عظيماً، وأن روحه في حال سقوطه في المعركة شهيداً، سترافق الشمس في رحلتها إلى الذروة. وإذا سنحت الفرصة لمقاتل الشمس أن يأسر أحد الأعداء، فإنه سيحتضنه ويقبله كأخ له.

وبوقت قصير، أصبح الأزتيك أقوى شعب في المرتفعات المكسيكية، ودولتهم كانت تتسع باستمرار وانتصروا على الشعوب واحداً بعد الأخرى من أجل الحصول على الأسرى. وبالطبع لم يكن ذلك ممكناً دائماً، إيجاد المبرر لشن الهجمات الحربية، وقد كانت هناك أيضاً فترات سلم، ويطالب آنذاك الكهنة بالأضاحي والأسرى وتلك كانت حالة محرجة، وهنا تم التوصل إلى مخرج معقول بالاتفاق مع الجيران بما يسمى حرب الزهور.

ففي يوم من الأيام توصلوا إلى أتفاق في أن يقف الجيشان في ساحة محدودة، وبالإمكان مقارنة هذه بالمناورة، ومن لم يكن مطلعاً على المغزى الحقيقي لهذا النزاع وفحواه الحقيقي، أي من أجل أخذ الأسرى وبقدر الحاجة لهم. ولكن بدون أن يضرب أحداً، إذ أن آلهة المكسيك تريد ضحايا أحياء، قلوب تسيل منها الدماء، وهكذا يتم الحصول على الأسرى دون قتال، وتأمين وجود استمرارية العالم.

ت : ولادة الشمس

حوالي مئة كيلومتر شمال شرقي العاصمة مكسيكو، يقع الوادي الجاف الذي يحده جبال جرداء. وإذا توجه المرء بين حقول سيسالاجافن باتجاه قرية تيوتيهواكان Teotihuacan، سيلاحظ في البعد أهراماً ضخمة، وهي مدينة معابد قديمة لتيوتيهواكان، المدينة القديمة التي تقوضت في القرن 8 ميلادي، وهذا يعني أنها اليوم تناهز 2000 عام. وبعد وصول الأزتيك شهدت هنا ولادة لشمس جديدة، وعندما يتابع المرء رموز الأزتيك، فالأسطورة لها رنين يشبه تقريراً عن أنباء كارثة عالمية جرت في التاريخ القديم: " كان الظلام قد حل، عندما أفلت الشمس القديمة، وهنا تجمعت الآلهة، ولم يكن لدى أحد ما يقوله، خرج من بين صفوف الآلهة، إله بشع، قصير القامة، وجهه مغطى بالأنتفاخات، وقفز وسط نار هائلة من حفرة الأرض، وقد صعد هذا الإله الذي تقدم للتضحية من أجل استمرار بقاء العالم، كنجمة مضيئة من اللهب وتطلعت الآلهة الأخرى بفزع من أن الشمس الجديدة ليس لها القوة الكافية للحركة، هنا ضحت آلهة أخرى بنفسها، ومن خلال موتهم بدأت الشمس تشرق.

ويعتقد بعض الباحثين بأن هذه الأسطورة هي ذكريات الهنود عن كارثة هائلة أحاقت بالطبيعة، وبشيء من الخيال بإمكان المرء أن يتخيل، أن هنا في هذه البلاد، أن ذلك نتيجة ليس سوى ثورة بركان رهيب، أو اقتراب كوكب من الأرض. ويروي لنا الأزتيك أيضاً الحكايات بأن طوفاناً قد حصل في تيوتيهواكان، واندلعت النيران وطافت المياه، وضحى آلهة بأنفسهم من

أجل استمرار العالم. ولكن البشر ظلوا في المسؤولية في أن يفعلوا كما فعلت الملائكة وعليهم أن يضحوا بأنفسهم من أجل إنقاذ العالم من تهديد يوم القيامة. وقبل ألاف السنين، قبل الأزتيك، كان السكان القدماء للمكسيك قد واجهوا تهديداً مماثلاً من الأفلاك، وقد حصلوا على معارف عن مسارها. هل يمكن المعرفة أن تأمن من مخاطر تكرار مثل هذه الكوارث الفجائية ..؟

إن رصد النجوم ومراقبتها وتسجيل حركتها في جسم السماء، ومعرفة علاقة ما يدور والتي يمكن الإشارة إليها، فإن العالم كل 52 عاماً سيواجه خطر يوم القيامة إذا لم تتم ولادة جديدة.

ث : طفل يأتي إلى العالم

أشباح ترتعش، النار المقدسة فوق قمم الأهرام تينوستيتلانس في الليل الأسود الحالك. منذ وقت طويل مضى السكان إلى السكون، وهم يرقدون في أكواخهم المصنوعة من حصران القش في نوم عميق، إلا إمرأة واحدة تمضي بسرعة في الشوارع الخالية وهي تحمل تحت عباءتها العريضة سلة. ولما أنها خشيت من الطبالين ونافخي المحار في قاعدة المعبد الرئيسي، تباطأت في سيرها واختفت في الظلمة. إنها ساعة ما قبل صعود الشمس. وتطلعت المرأة إلى الشرق، ورددت: " أوه ... هويتسيلوشتلي .. اصعد وأظهر لنا ".

ثم أنها واصلت سيرها مستعجلة، فعبرت ساحة كبيرة ثم اختفت في مدخل بيت عريض مصبوغ بالأبيض. لم يفتح أو يغلق أي باب، ففي مملكة الأزتيك لم تكن الأبواب معروفة سوى الستائر والمظلات الجدارية. وبخطوات قليلة اجتازت المرأة قاعة مظلمة فدخلت إلى باحة داخلية (حوش) مربع الشكل، وكانت بذلك قد وصلت إلى هدفها. فالمرأة حامل في شهرها الأخير، والتي استدعيت من أجلها. جلست المرأة الحامل القرفصاء على الأرض، كما لو أنها تعرف المرأة القابلة، فقد كفت عن التأوه والتوجع.

إنه غلام، ذلك الذي ولد، وها هو يرسل صيحته الأولى، وتحدثت القابلة إليه: أوه، ولدي، لقد جئت إلى هذا العالم الذي يعيش فيه والداك في فاقة وقلق..! الحياة هي وحشية على الأرض، ولكنك بيتك في غير هذا العالم، فهنا ليست أكثر من جحيم، من المؤكد أنك ستكون محارب ".

وبينما كانت تغسل الطفل، قامت بصلاتها إلى آلهة الماء: " أوه، يا أم وأخت الآلهة، اجعلي قلبه وحياته نظيفة مثل الماء ..! ".

وبعد هذه التحيات الأولى للطفل، أتخذ الأب طريقه إلى موقع مراقبة النجوم، الذي بإمكانه أن يقرأ الطالع عند الحكيم الذي بيده معرفة وحكمة 260 يوماً، سيكون صانع تماثيل فخار، عاملاً في حساب الأيام(رزنامة)، وخرج هذا وأجرى مقارنة بين العلامات والأرقام لساعة الولادة، والمعطيات مع كتاب الطالع، ثم تطل آلهة الساعة التاسعة مساء للاستشارة، وبدت على وجهه علامات التفكير " يا سيدي، لقد وصل أبنط في ظروف غير جيدة، (الأرنب) يعني أنه سيجنح للشراب، ولكن بنفس الدرجة أجد هناك أرقاماً التي تضعف وتقلل من أهمية هذه الظروف غير المناسبة. ومن أجل إزاحة تأثيراتها بصفة كاملة وتامة، لندع يوم التعميد (التدشين) إلى يوم آخر

جيد، نؤجلها إلى سبعة .. نسور. وفكر الأب في هذه النصيحة الجيدة، وأهدى الكاهن الأقمشة وموارد معيشة مقابل معلوماته ونصائحه، وعاد إلى منزله.

ج : تقويم حكمة الأساطير أم السنة القمرية

التونالبوهوالي Tonalpohuali هو تقويم (رزنامة) أيام، وربما هو أقدم تقويم هندي على الإطلاق.

كان الهنود في العصور القديمة يجرون حساب الأيام على أساس السنة القمرية ذات التسعة شهور قمرية، وكل منها أقل من 29 يوماً، وبالنسبة لهم كان القمر إله، وحتى يومنا هذا يجد المرء عند نساء بعض القبائل الهندية يضعن على ثيابهن رمز القمر. 260 يوماً هي رزنامة الحكمة والمعرفة، و260 يوماً ينمو الطفل فيها في أحشاء الأم حتى ولادته. وكهنة الأزتيك يقسمون هذه الرزنامة إلى 13 شهراً لكل منها عشرين يوماً، وكل يوم من الأيام العشرين له أسم مثل: التمساح، الغزال، الكلب .. الخ. وكل شهر يستعيد نفس التسلسل من 1 إلى 20، وعدا ذلك، فإلى جانب أل 20 أسم من أسماء الأيام، هناك أعداد من 1 إلى 13، واليوم الأول من الشهر الأول في السنة يبدأ إذن ب 1، وبعد الأربعة عشر يوماً يأتي مرة أخرى رقم 1 وكل شيئ يبدو هكذا:

1. اليوم الأول في الشهر : تمساح 1
2. الثاني : ريح 2
3. الثالث : بيت 3
4. الرابع : سحلية 4
5. الخامس : ثعبان 5
6. السادس : موت 6
7. السابع : غزال 7
8. الثامن : أرنب 8
9. التاسع : ماء 9
10. العاشر : كلب 10
11. الحادي عشر : قرد 11
12. الثاني عشر : عشب 12
13. الثالث عشر : قصب 13
14. الرابع عشر : نمر 14
15. الخامس عشر : نسر 15
16. السادس عشر : صقر 16
17. السابع عشر : حركة 17
18. الثامن عشر : حجر 18
19. التاسع عشر : مطر 19
20. العشرون : زهرة 20

ثم ....

1. اليوم الأول من الشهر الثاني : تمساح 8
2. اليوم الثاني من الشهر الثاني : ريح 9 ..... وهكذا

وقد بحث علماء الآثار في أهمية الأسماء: الفرو وهو رمز للنجمة القطبية، النسر رمز الشمس، الأرنب للقمر، وحتى أسماء الأشياء تبدو هكذا: الريح = الهواء، البيت = الأرض، الماء = الماء، الحجر = النار.

والأيام الثلاثة عشر الباقية هي رمز للحيوانات على عكس ال12 يوماً التي نعرفها، كان للأزتيك 13 شهراً، وكل يوم له أهميته الخاصة تماماً، كما لكل عدد من الأعداد ومن خلال الارتباط بين العلامات (الرموز) والأعداد، اتخذت أصول الحكمة والمعرفة قواعدها، والحياة بأكملها من خلال رزنامة علم المستقبل: الحرب، العمل، الاحتفال، بناء معبد، علامات الأيام، وتاريخ الولادة يؤثر على حياة البشر وحتى بعد وفاته.

مواليد الغزال مثلاً، هم للحرب، هكذا كانوا يعتقدون، وهو ما يمنح شعوراً بالخوف. مواليد الأرنب مهدد بالأخطار وينتهون كمدمنين على تناول الخمر. وكل إشارة لوحدها ليست كافية، فهناك دوراً كبيراً مماثلاً للأعداد حيث بأمكانها أن تقوي تأثير الرمز أو أن تخففه، على سبيل المثال: فقد كانت الأعداد 4، 7 من الأعداد السعيدة، والرقم 5 غير سعيد، وإذا ولد طفل في يوم 5 (الأرنب) سيكون لذلك تأثيره السيئ والمرء يحاول أن يجري مقارنة، فإنه يضع خوض المعمودية في يوم مناسب، على سبيل المثال في يوم 7 (النسر)، وهذه كانت التضحية التي تقدم بها العراف للأب.

ح : السنة الشمسية

حكمة الأسطورة أم السنة القمرية. يخدم الكهنة في إدارة الحياة اليومية، وهو لا يتلاءم مع (620) يوماً في مسيرة أيام السنة، وبذلك يستخدم المرء رزنامة ثانية التي تعتمد على الشمس. والرزنامة الشمسية هذه لها 365 سوماً، ومثل الرزنامة القمرية لكل شهر 20 يوماً، وهكذا يكون هناك 18 شهراً في السنة ومجموعها 360 يوماً. وخمسة أيام لا تحسب في هذه السنة، وتعد أياماً صامتة أو ميتة غير مفيدة، وفيها لا يمارس المرء أية فعاليات مهمة. وفي كل 52 سنة شمسية، تتكرر مصادفة أن تكون بداية السنة الشمسية مع السنة القمرية، وفي هذا اللقاء، أي كل 52 سنة، يعتقد الأزتيك أن العالم مهدد بيوم القيامة، ومراقبو النجوم قد ثبتوا في رصدهم للسماء، بأن الكوكب فينوس ونجمة الصباح أيضاً قد أخلت مع الشمس والقمر كل 52 سنة. وكان المايا القدماء يعلمون بأن فينوس تتحول من نجمة صباح إلى نجمة مساء. والزمن الذي يحتاجون في التحول من نجمة صباح إلى نجمة مساء، وإلى نجمة صباح مرة أخرى يناهز 584 يوماً، وعلينا أن نتخيل بأن كهنة مراقبة النجوم بأيديهم قائمة حساب، وهم يجرون هذه العمليات الحسابية.

وفي يوم ما وصلوا إلى الرقم 73، ويكون حاصل الجمع ثماني مرات بالرقم 584 والرقم 365 خمس مرات، وبصورة غريبة هناك 73 سنة قمرية و52 سنة شمسية، وهنا لدينا لعبة أرقام سرية على سبيل المثال للهنود القدماء. ونعود مرة أخرى إلى الرقم 52 ونمضي في إجراء الحساب خمس مراحل فينوس هي 2900 يوماً، وهذا يعني ثمان سنوات شمسية, 5 + 8= 13،

13 × 73 × 20(أيام الشهر)=18980، أو عدد الأيام في 92 سنة شمسية. والآن نعلم لماذا عاش الهنود متعلقين بالنجوم وبأعوامهم ال52 الإيقاعية المنظمة، ولماذا يفعلون كل شيئ وحتى الحرب يتعلق بأوضاع النجوم.

خ : حرب بأسم آلهة الشمس

تقدم أكسوكيتل منحنياً، وهو يقوم بمهمة حامل رسالة من ملكه موكيتسوما Moctezumma، الذي كان قد أنتخب عام 1502 كحاكم للأزتيك. وحامل الرسالة لم يكن ينظر إلى الملك في وجهه حتى عندما كان يحادثه " أوه أيها السيد، في أكستابانتل Ixtapantl، هناك بعيداً في الجنوب، تعرض تجار من الأزتيك إلى النهب من قبل جماعة من أكستابانتل " وبعد أن أخبر الساعي عن كافة التفاصيل، كان قد أنهى بذلك عمله.

أستدعى الملك أكبر مستشاريه سناً، ومضى الرجال الحكماء في تفكير عميق، وبعد جلسات طويلة توصلوا إلى القرار: " هذا هو سبب مناسب لإعلان الحرب ضد أكستابانتل، وفور أن تكون النجوم في وضع مناسب " قال أكبرهم سناً.

والآن فإن سفرائي من تينوشتيتلان هم في الطريق إلى أوكستابانتل في مهمة سلمية، وقد اجتمعوا هناك في مجلس كبار السن قائلين:

" فكروا بذلك، لقد وضع عبئاً وذنباً ثقيلاً على عاتقكم بأنفسكم، نحن لدينا الحق لأن نحاربكم، والنتائج ستكون فضيعة. ونحن نريد أن ننسى كل شيئ ونسامحكم إذا وضعتم أنفسكم تحت حماية دولة الأزتيك، وعليكم أن تضعوا آلهتنا هويتسيلوبوشتيلي موضع الاحترام والتقدير وعليكم أن تضعوا تمثاله بجانب تمثال آلهم الرئيسي، وكذلك فإننا ننتظر منكم أن تبعثوا لنا بهداياكم ".

ولكن مجلس حكماء أكستابانتل لم يعلن على الفور عن استعداده للاستسلام سلمياً، فقد قدموا إلى سفراء أعدائهم السيوف والسهام والدروع قائلين: " لن يكون لكم أبداً ما طلبتم، لقد اعتديتم علينا وغدرتم بنا ".

وغادر السفراء المدينة، ونصبوا خيامهم في منتصف الطريق إلى عاصمتهم تينوشتيتلان. وكان أمام الأعداء 20 يوماً للتفكير في الأمر ملياً، وبعد سريان هذه المدة المحددة، بدأ أيضاً سفراء من مدينة تيكسكوكو Texcoco الأزتيكية بسفرة إلى معسكر الأعداء، ومنحوا هم أيضاً فرصة 20 يوماً مثل مبعوثي تينوشتيتلان إلى قائد الأعداء. وقال سفير تيكسكوكو:" فكر أيها الأمير، بأننا إذا انتصرنا عليم ستموت ضرباً بالهراوات..! إننا سوف لن نسمح بأن يسيل دمك وقلبك بأن يتدفق فوق صخرة التضحيات، وحتى شرف وكرامة نبلائك سوف لن تنال من ملكنا العظيم مصيراً آخر، وسوف لن تسنح لك الفرصة أبدا بمرافقة الشمس في تحليقه، ولكنك إذا استسلمت في غضون المدة حتى منتصف الشهر القادم، وترسل هدية سنوية إلى تينوشتتلان، فإننا سنتعامل معك وشعبك بصداقة ".

وقد أمتنع الأعداء هذه المرة أيضاً، وهنا مسح سفراء تيكسكوكو على رأس وذراع الأمير العدو قائلين :" بذلك فإنه سينال حماية ضد هجمات الأزتيك الغاضبة ". هكذا هي حقوق وقوانين الحرب.

وترك السفراء المنسحبون ورائهم قطعاً من الأسلحة كهدايا، كما فعل السفراء الذين من قبلهم. وعندما مضت المهلة الثانية بدون نتيجة، فها هو الآن الحليف الآخر لتينوشتيتشلان ملك تركوبان، يعلن العداء. ومرة أخرى منح الأعداء هذه الدولة مهلة تفكير أمدها 20 يوماً، ثم أنه تحادث مع الجنود وذكرهم بتاريخ الحرب والفقر الذي تسببه قائلاً:

" ستسقط مدينة أكسابانتل في العبودية قريباً، وستبقى إلى الأبد تدفع الضريبة ".

وبعد نفاذ المهلة الثالثة (20 يوماً) وهي آخر مهلة أنقضت، ولما وقف الكهنة وقارئ طالع النجوم أمام حاكم الأزتيك، فهم وحسب حكمة الأساطير سيقررون مكان وزمان بدء الحرب.

لقد بدأت عجلة الحرب بالدوران.

وفي حومة المعركة، سيقف المحاربون الأكثر قوة وشجاعة في الصفوف الأمامية، فلديهم واجب أن يرموا على العدو، أو يصيبوه بالصدمة، وبذلك فأن الوحدات الخاصة الأخرى، ستعمل على أخذ الأسرى أحياء للتضحية بهم، وحال إلقاء القبض عليهم، يتم سحبهم إلى الخلف، ولا يقتلون إلا في الحالات الاضطرارية القصوى، وإذا تمكن المهاجمون من الوصول إلى المعبد الرئيسي للأعداء وإضرام النار في مقدساتهم، فذلك يعني أن الحرب قد انتهت بالنصر.

الآلهة قد تكلمت، وبديهي أن آلهة العدو تنحني أما آلهة المنتصر المتفوقة، وكعلامة تؤكد النصر، تصاعد اللهب إلى أعلى السماء.

خسرت أكستابانتل، وعليها أن تبعث بدون تأخير وفداً من هذه المدينة إلى معسكر الأزتيك، يقدم الاستسلام ويرجو السماح. والمنتصر يطرح موقفاً ينطوي على فروسية، وتعقد اتفاقية سلام مع الأعداء بعد محادثات طويلة.

د : هبوط الآلهة

نزل الأسبان في المكسيك عام 1519 بقيادة هيرناندو كورتيس Hernando Cortez حيث كان الملك موكتيسوما الثاني يحكم الأزتيك. وكان الأزتيك يسمون تلك السنة ب (قصب 1) لأن اليوم الأول من تلك السنة من تلك السنة يحمل هذا الاسم، وكانت السنة تسمى باسم اليوم الأول منها.

والسنة قصب كان لها أهمية خاصة في معتقدات الأزتيك، إذ أن آلهة الضوء، نجمة الصباح كويتسالكواتل الذي كانت سنة ولادته في عام قصب يسمى (أمير قصب 1) غادر البشرية بعد 52 عاماً من ولادته، ثم عاد بعد سنة واحدة. وبعد النصر أصبح المعلم العظيم للبشر. وكان يشغل منصب الملك والكاهن الأكبر فيها، وكانت الظروف والأحوال تشابه الجنة، ولكن الناس لم يكونوا يظهروا له الاحترام والتقدير الكافيين، لأن ملك الآلهة في كويتسالكوتابل قد غادرهم، فقد صعد مع المقربين إله إلى سفينة في خليج مكسيكو، ونادى عليه الناس أن يعود في عام القصب لكي تسود العدالة.

وعندما لاحظ سفراء ملك الهنود موكتيسزوما الثاني في عام القصب التي تقابل عام 1519 ميلادية يخبر عن نزول البيض، إذ لم يكن يشك ولا لحظة واحدة، بأن كويستاكواتل قد عاد مع المقربين إليه، لا سيما وأن الإنزال قد جرى في نفس الموقع(حسب الأسطورة). وكان ملك نجمة الصبح قد ركب زورقه (الآلهة البيض) كانت لهم لحى، وحتى كويستاكواتل كانت له

لحية، وهذا يعني شيئاً كثيراً للهنود الذين لم يكونوا يطلقوا لحاهم، وقد نزلت حيوانات ضخمة، ربما هي آلهة، إذ أن الهنود لم يكونوا يعرفون الخيول التي ظهرت لهم كمخلوقات من العالم العلوي، كما كان قصف المدفعية الأسبانية قد عزز قناعتهم أن القادمين يتمتعون بقوة الآلهة.

وما لم تكن تلك علامة مقبضة للنفس، التي أكدت هذه الإحداث. فالملك موكيتزوما ما يزال يتذكر شخصياً ذلك اليوم الذي جلب فيه له الصيادون طيراً مائياً كان يحمل فوق رأسه مرآة وبوسع المرء أن يشاهد في هذه المرآة السماء والنجوم. ولكن حين تطلع الملك في المرآة، شحب لونه، إذ علم أن هناك كثير من المحاربين يقتربون وهم يمتطون ظهور حيوانات كبيرة غير معروفة عام 1509، وكانت هناك نار كبيرة يتصاعد لهيبها من الأرض إلى السماء. وعندما شاهدها الملك، هكذا يحدثنا المؤرخ: " لم يظهر احتراماً وتقديراً للسلطة، وأعطى، في الحال الأوامر بإيقاف القتال والحرب ". والآن قد حلت سنة قصب، وها هو كويتساكوابل قد جاء مع لإحلال العدل .

وعندما يقرأ المرء التقارير الأسبانية عن احتلال المكسيك يتساءل، لماذا لم يرسل ملك الأزتيك جيشاً كبيراً إلى الساحل ليطردوا ال 500 أسباني برغم تسليحهم الحديث. وهذه الأفكار يناقشها الناس اليوم فقط، ولكن الأزتيك كانوا يعيشون في عالم كان القرار فيه للآلهة النجوم، ونحن نعلم بالتأكيد، بأن الحرب إنما تتم بتوجيه من الآلهة إلى الجن والعفاريت، ولكن كل شيئ يتحدث هنا ضد مثل هذا القرار.

ذ : الوصول إلى عالم آخر

يكتب برنال دياز Bernal Diaz المرافق المخلص لقائد الحملة الأسباني هيرناندو كورتيس في تقريره عن احتلال المكسيك قائلاً: " لا أدري كيف أتحدث عن تلك الأشياء التي لم أسمع عنها، ولم أراها أبداً من قبل، نعم أشياء لم أحلم بها حتى ..! ".

وبصراحة، فإن مجرد الإنزال في كوكب بعيد اليوم يضاهي ما فعله جنود أسبان هؤلاء الذين شقوا طريقهم بعناد في يوم الثلاثاء الأخضر من عام 1519 إلى الساحل، وكانت المكسيك أمامهم مليئة بالأسرار، وتلوح في الأفق البعيد قمم البراكين المغطاة بالثلوج. وكان زورقان كبيران من زوارق الهنود بحمولتها من الأزتيكيين السحرة قد تمكنوا من شد جانب من سطح سفينة القيادة الأسبانية (سفينة ذات أشرعة). كان هناك عالمين بعيدين عن بعضهما البعض بدرجة لا نهائية، يتلامسان الآن، ولكن القادم من الغرب قوي ومجهز بالأسلحة والذهب، متدينين متعصبين، لا يقارنون بالمكسيكيين وبآلهتهم من النجوم التي تطالب بالموت.

أمعن موكتيزوما في التفكير حول الرسالة، فإنه هو الذي يرتدي ثياب الكاهن الأكبر وكاشف طالع النجوم، وهو الذي يعرف حكمة الأساطير للآلهة نجمة الصباح كيوتيساكواتل، وهو متعب من وطأة المشاعر السوداء. وهناك الكثير متعلق بهذه السنة ليس فقط الرموز، بل أيضاً تقارير الجواسيس. فالآلهة البيضاء هي الآن على الساحل، وجلب السعاة النهود الأنتباه عن ذلك، فلم يمضي سوى 24 ساعة على الإنزال، رست السفن الشراعية الأسبانية بالقرب من الميناء الحالي فيراكروز. وقد علم موكيتزوما الثاني عن إنزال (الآلهة) وهو القائد المجرب في حروب هندية كثيرة، ولكنه الآن لا يدري ماذا يتعين عليه أن يفعل، وكل شيئ هو أقرب للبشر من محاربة الآلهة. وينبغي فعل كل شيئ من أجل إبقاء مدينة المعابد شتيتلان بعيدة عن ذلك، وسوف يكون ثأر كوريتسالكواتل فظيعاً. ومرة أخرى يشك موكيتزومابأن آلهة نجمة الصباح قد عادت حقاً. وقد أرسل من يثق به للتأكد، وهو النبيل تويتليلا إلى كورتس، للتثبت تماماً، ويختبر

بدقة فيما إذا كان الغريب هو حقاً كويتساكواتل، وبهذه الحالة حتماً تكون أفكاره معروفة، وسيعامل وفق تعاليم كويتساكواتل نفسه، وإذا كان غير ذلك، فينبغي تقديم التضحية بالبشر للآلهة.

وقد قام النبيل توبتليلا بإخبار سيده، كيف أنه ذهب إلى كورتس مع الهدايا الثمينة " إنني أقدم أيضاً سلة مزخرفة مليئة بالفواكه ولحوم صيد. وعندما قلت له بأنكم قد نذرتم دم وقلب ضحية طازجة، رفض هذه مبدياً مظاهر الاستياء، وقبلوا فقط " قاذورات الألهة" الذهب، والأحجار الكريمة ومصوغات وحلي. وأنا لم أكن أنتظر غير ذلك إذ أن سيدنا كويتساكواتل قد منع التضحية بالبشر ".

والآن قد غدا واضحاً، لماذا يبدو الملك والكهة بأشد القلق: إن كويتساكواتل قد عاد من أجل إقامة العدل، والمرء يرتجف عندما يفكر بأن ضوء الآلهة الأزتيك يمكن القتال معها.وهويتزبلوشتلي كن يعيش من دماء الضحايا الدافئ، وعليه أن يضع نفسه تحت أمرة الآلهة العائد من أجل النضال والقتال لتحقيق العدل.

ونصح الكهنة موكيتوما، أن الآلهة البيضاء يمكن أن يكسب ودها، وفي نفس الوقت، وبدون سوء فهم، يمكن التوصل معهم إلى تفاهم، بأن لا يدخلوا العاصمة، لذلك فقد أرسل الأزتيك البعثة تلو البعثة يحملون معهم إلى الأسبان الهدايا النفيسة. وقد كان يخدع نفسه عندما يتصور بأنه وبهذه الوسيلة سيتمكن من تجنب الخطر.

وكان القائد الأسباني القصير القامة قد أقام معسكره المحصن في فيراكروز، والأنباء التي وصلت عن سلطة وحجم المملكة الأزتيكية جعلت الأسبان في حالة من الاستغراب والخوف، كما انتشرت الخرافات بين الجنود الأسبان بأتساع، وكانوا يفضلون العودة من حيث أتوا. وفقط الهدايا الثمينة خلقت القناعة عن ثراء الأزتيك، وايقضت في نفوس الأسبان الجشع وشراهة للطمع الذي بدل يحل تدريجياً بدل الخوف، وقد توقف الجنود الأسبان ستة اشهر بعد نزولهم، ودمر كورتس قبل أن يتقدم إلى العاصمة أسطولاً كاملاً، وبذلك لم يعد بوسع جنوده التفكير بالعودة، وبدأت قواته بالحركة، وبدأت دورة القدر بالحركة أيضاً.

ر : القتال الأول

تقدم الأسبان بشكل سلمي وبدون إعاقة من أحد، وقد سعوا وهم في الطريق إلى إبداء الصداقة للقبائل الهندية. وقد تيسر لهم من خلال ذلك إقامة صلات وتحالفات مع الكثير من محاربي قبائل الأزتيك التي استسلمت لهم، أي للرتل الأسباني المتقدم، ولكنهم تعرضوا في المرتفعات، في منتصف الطريق إلى العاصمة، إلى هجوم من جيش هندي كبير. وكان هؤلاء من التلاسكاليتك من أعداء الأزتيك اللذين لم يكونوا يحفلوا بالجهود الدبلوماسية التي يقوم بها الأزتيك، والنصر الأسباني أسفر عن أعجوبة، وهو حل يتسم بالفروسية، وذلك بعقد الصداقة مع البيض، على أن يكونوا في يوم من الأيام إلى جانب الأسبان في لحظة الحرج الشديد، وبذلك ستكون النهاية التامة لمملكة الأزتيك.

ولما علم موكيتسما عن تحالف تلاسكاليتك مع الآلهة البيض، فقد قرر استخدام العنف وبأسرع ما يمكن، وحاول مبعوثوه مع القبائل الصغيرة التي يمر الرتل الأسباني في أراضيهم، إقناعهم

بخوض حرب عصابات، ولم يكن الأزتيك يرغبون بأي حال خوض الصراع المكشوف ضد الآلهة.

وبصفة مؤقتة لم يحصل ما كان الأسبان يرغبون في حدوثه، وكان الهنود يتعاملون بحذر، وكان القائد الأسباني كورتس يهاجم بقسوة وبصرامة إذا جازف اللصوص أو سراق الأرياف التعرض للسكان المحليين، ولم يكن كورتس يتردد أيضاً في شد وثاق جندي من جنوده إذا قام بالقتل أو النهب، وقد أفلح كورتس في استمالة كل القبائل الهندية في المناطق التي أحتلها جيشه الأسباني الصغير. بل وأن يكسب منه الأصدقاء.

ولك يكن ذلك هو الوحيد مما كسبه كورتس، بل أنه أتخذ إلى جانبه مستشارة لها قيمة أكثر من كتيبة من مقاتلي الريف الأشداء، وهي امرأة هندية تدعى دونا ماريانا Dona Mariana التي أصبحت فيما بعد زوجة لكورتس. وهذه المرأة الذكية هي ابنة أحد أمراء الهنود من مناطق سواحل الخليج الجنوبية على نهر كواتسا كولكوس Coatzacoalcos، وهذه الأرجاء لم تكن خاضعة بشكل مباشر لمملكة موكتسسوما، ولكن اللغة السائدة هناك أيضاً هي الأزتيكية، وعندما توفي والد دزنا ماريانا وكان أسمها الأزتيكي تينيبال Tenepal أخذتها أمها إلى تاباسكو Tapascoوبيعت هناك كجارية إلى زعيم قبيلة المايا Maya وهناك تعلمت الفتاة لغة المايا.

وعندما رست السفن الأسبانية في رحلتها إلى المكسيك في سواحل تاباسكو، قام المايا بإهداء الجارية تينيبال إلى قائد الحملة الأسبانية، ومن ذلك اليوم فصاعداً، رافقت هذه الهندية كورتس، ثم أنها حملت أسم ماريانا، وتعلمت بسرعة اللغة الأسبانية وكانت تقدم النصائح إلى حبيبها المحترم، فهي التي أوضحت له عن اللآلهة القديمة، كما تحدثت له عن التقاليد والأعراف والمألوفات الأزتيكية وروت له كراهية الناس للضريبة الإلزامية التي تقدمها الشعوب إلى مضطهديهم الأزتيك.

وقد أستمع كورتس وتعلم بأن الكثير من القبائل هم بالانتظار لأن يتخلصوا من الخضوع لهم، فقد كانوا يرزحون تحت ثقل الالتزامات الملقاة على عاتقهم وكذلك السلع التي ينبغي عليهم تقديمها إلى الأزتيك، فقد كان عليهم دائماً وأبداً توفير البشر من أجل تقديمهم كتضحية. وبمساعدة دونا ماريا، تمكن كورتس أن يجد صلات تحالف مع الهنود، وقبل كل شيئ مع التكاسكاليتك، وكانت معلومات ماريا وإخلاصها لزوجها قد ساهمت في تمكين كورتس من تأسيس مملكة قوية ببضعة جنود من الفلاحين.

ز : كولولا المقدس

إن أكبر هرم في العالم لا يقع في وادي النيل، بل هو لا يبعد سوى كيلومتر واحد عن العاصمة مكسيكو، وهناك 120 كيلومتر مسافة التي تبتعد فيها أهرام كولولا عن العاصمة الأزتيكية. ودخل بدهشة الأسبان إلى المدينة المقدسة، فهم تقدموا من خلال منطقة مكتضة بالشعوب، واتخذوا من كولولا وفي وسط المدينة مقراً لهم، وأقاموا الحراسات والمواقع لقواتهم. وبنى كورتس قائد الحملة سوراً مسنناً على سطح مقره لغرض الحماية، وانطلاقا من هنا، كان هذا المقر يتيح له رؤية ممتازة إلى جميع الاتجاهات. وكانت الشوارع تغص بالحجاج القادمين من جميع أنحاء البلاد. وفي أطراف مدينة المعابد تتصاعد ألسنة النيران من حوالي 400 من الأهرام الصغيرة. وهذه الصورة متوجة من خلال البناء المرتفع العريض والمجوف للهرم الرئيسي كالأخ الصغير للهرم العظيم بوبكا يتبيتل الذي كان يقع في الضواحي، ويمتد لحوالي

نصف كيلومتر، مربع الشكل من حيث الأساس والدعائم، وإن جبل التضحية كان بضعف حجم هرم خوفو. ولم يكترث كورتس إلا قليلاً من التطلع ومشاهدة هذه المدينة التي يمتد تاريخها إلى 2000 سنة والتي ساهم في بنائها كافة شعوب المكسيك، وقد تم العمل بها في غضون 1500 عام.

لم يكترث هرناندو كورتس لكل ذلك، فقد كانت له هموم أخرى، فحارسه أحس غريزياً بالخطر، فقبل نصف ساعة كان ممثلوا المدينة قد مضوا إلى اجتماع عقيم، وصدرت الأوامر بتشديد الحراسة ومضاعفتها، ووضع الأسلحة النارية في وضع الاستعداد للرمي.

وحتى مغيب الشمس لم يحدث أي شيئ غير اعتيادي، فجلس كورتس وحيداً على سريره الميداني وطفق يفكر. وحلقت أفكاره قريباً من الهدف الذي كان يقع خلف البركان: العاصمة تينوشتييتلان، فهناك سيجد الكنوز التي سيكون التبرير لحملاته الاستبدادية .. الذهب ... الذهب، فهو الذي سيكون من شأنه تخفيف سخط السدة الملكية الحاكمة في أسبانيا. ونهض كورتس وتقدم من منضدة صغيرة، وأخذ جرعة عميقة من الشوكولاتل، وهو مشروب جيد يحضره الهنود هنا وطعمه ومذاقه لا يؤدي إلى الدفء، وهذا شيئ غريب آخر. وكان كورتس منذ أن قدم له الهنود هذا المشروب لأول مرة وتذوقه عند نزوله على البر المكسيكي، أفتتن به وأدمن على تناوله تقريباً. ثم فكر مرة أخرى بالذهب الذي سيرسله للملك الأسباني كارل الرابع. وفي هذه الليلة كان حراسه يبدون في صورة غريبة، فقد ظلوا حتى الفجر يستمعون إلى خطوات قائدهم المضطربة.

وفي نفس الساعة التي كان فيها القائد العسكري الأسباني لا يجد فيها إلى النوم سبيلاً، كان نبلاء الهنود مجتمعين في كولولا مع مبعوثي موكتيسوما، يبحثون في كيفية الاستعداد للقتال ضد الدخلاء في أزقة المدينة وأبادتهم. إن صد هذا الغزو ليس من الأمور السهلة، ولكن يجب أن يكون واضحاً بأن القتال ضد الفرسان ليس له سند أو تقليد في معارفهم القتالية، وكان الشك قد بدأ يتسلل إلى الأصل الألوهي للغرباء، فقد أظهروا(الغرباء الأسبان) عدم الاحترام لكل العلامات والرموز الإلهية وأظهروا أيضاً بوضوح احتقارهم لأصول وتقاليد الحرب الهندية.

وفي صباح أحد الأيام، وبينما كان الأسبان يقومون بالحراسة في مقرهم، وجدوا أنفسهم مطوقين من الهنود، وظهر أحد مندوبي المدينة أما كورتس، وطالبه بالاستسلام.

أصغى كورتس إليه بكل هدوء وإلى الخطاب الطويل الذي ألقاه أحد النبلاء الهنود، وبدا عليه أنه يقبل اقتراحهم بالتسليم قائلاً " لدي شرط واحد، إنني أريد التحدث مع كافة قادتكم، وأن أشاهدهم أمامي، أبعثوا بهم إلي حتى نتحادث بالاستسلام ".

وبالفعل فقد حضر كافة نبلاء الهنود حسب الاتفاق عند كورتس الذي أمر على الفور بوضعهم في السجن، ثم أعطى كورتس الأوامر بفتح النار. وفي وقت قصير أندحر الهنود الذين كانوا قادة وكذلك أضرم كورتس النار في المدينة المستسلمة، ولم يكن كورتس يقيم وزناً للاعتبارات، حيث قامت قواته بقتل الآلاف من البشر، وبذلك أصبح ظهر كورتس حراً، والعاصمة أصبحت أمام قريبة ويسهل احتلالها.

س : إرسالية إلى الممر

الهواء يكون خفيفاً على ارتفاع 4 ألاف متر، وكان الجنود الأسبان يتحركون بتؤدة قدماً بعد قدم، وكانوا يقفون بين فترة وأخرى باستمرار لاسترداد أنفاسهم، وفوقهم مباشرة كان يقع الممر، وليس هناك جندي واحد لا يذوب شوقاً بانتظار أن يصل إلى ذلك المكان لكي يتمكن أخيراً أن يلقي نظرة إلى الوادي المرتفع، التي تنفتح فيه عجائب لم تقع عليها العيون. والرتل الذي كان يبلغ الكيلومتر طولاً قد وصلت مقدمته إلى أطراف ذلك المكان. وإلى الأمام كان كورتس على صهوة جواده، ومعه ضباط ركنه، وكان الجنود يتطلعون إليه، ثم هناك حيث كانت مجموعة من محاربي الأزتيك على المرتفعات وهم يحملون رماحهم ودروعهم.

الآن ترجل كورتس عن جواده، وتقدم وفد الهنود وانحنوا أمامه ثم قاموا بإيصال هدية ملك الأزتيك، مصوغات وأعلام مذهبة. وموكيسوما الذي كان قد أحيط علماً بمذبحة كولولا، تراجع الآن وأصبح شديد الحذر، وهو قد طلب من مبعوثيه هذه المرة على العكس تماماً من المرة الأولى، يرجوهم بأي شكل من الأشكال أن يحلوا ضيفاً عليه. ولقد لوح الضباط الأسبان باستهزاء بالرايات الذهبية، أيعلم هؤلاء الضباط أن هذه الأعلام هي نفسها تلك التي قدمها الأزتيك إلى الأسرى قبل أن يساقوا إلى مذبح التضحيات ..؟ أيثق المرء بعد بالأجانب ..؟ هل أن هذه الهدايا ستنهي حياتهم على صخرة المذبح لأحد المعابد ..؟ ستكون هذه الأفكار للكثير من الجنود الطيبين ذات يوم حقيقة فظيعة.

وبعد فشل الهجوم على كولولا، أصبح الأزتيك مستعدين لأن يأخذوا(البيض) ويستقبلوهم بأذرع مفتوحة، ترى هل أن الأمر سيؤدي إلى دفعهم إلى فخ ..؟ أحس كورتس بهذا الخطر وفكر برأس باردة، وقلب الاحتمالات والعروض المطروحة أمامه، ومن المؤكد أن لا طائل من أن يزج المرء بنفسه في هذه المدينة الضخمة، إذ أن أي محاولة لتخريب القنوات والسدود ستكون ذات خسارة مفزعة، ولكن العودة والتراجع الآن ستكون النهاية فعلاً. وحتى إذا كان بالإمكان العودة والوصول إلى الساحل وبناء سفن والشروع بالسفر إلى الوطن، وبدون الذهب الذي يملأ خزائن كارل الرابع سيكون انتحارا، إذن فهناك شيئاً وواحداً فقط: إلى الأمام ...!

ش : المعجزة التي لم يرها أحد

والآن يصعد الجنود إلى الوادي المرتفع وهم يعتقدون أن لا شيئ في العالم غريب عليهم، ولكن الغرائب كانت تنتظرهم هنا، شملت كل ما يمكن للخيال أن يتصوره ويرسمه. وكان شقيق الملك موكتسيمو، الأمير كوتيلاهواك له ممتلكات جميله خاصة به في منطقة اكستابلانبان Ixtaplanpan الكائنة في الطريق ما بين الممر والعاصمة. وكان الأمير نفسه شاعراً ورساماً ومحباً للفخامة والجمال. وقد أستغرب الأسبان بما كان الأمير قد حققه، فهل شاهدوا حدائق عائمة ..؟

كانت الحدائق ومياه بحيرة صافية قد تداخلت، وكانت هناك قنوات وسدود كما كانت هناك زوارق (جندول) تنزلق فوق الماء بجمال وروعة، وهناك أيضاً مزروعات مدارية من جميع الألوان تنعكس في جميع ألوان الطيف الشمسي (قوس قزح)، وطيور ملونة يرافق تغريدها أصوات عزف الناي للموسيقيين من أماكن عزفهم البالغة الفخامة. وحول القصر كانت هناك حديقة حيوانات ترتع فيها الغزلان المدجنة، ضمن مساحات واسعة من الأعشاب الخضراء. وبشيئ من التردد، دخل الجنود الأسبان إلى قاعات وردهات القصر الأميري الذي اتخذوا منه

مقراً لهم، وقد بدت الفخامة في التأثيث والتجهيز لهؤلاء الجنود المحاربين الذين يتسمون بالخشونة، كما كانت الرائحة الطيبة تطلق عبقها في أرجاء القصر.

وكانت الألوان الجميلة للسجاد النفيس والمصوغات والأخشاب الغالية والحلى، كانت جميعها فريدة في نوعها. وفي الساعات الأولى ضاع بعض الجنود في أنحاء القصر الواسع الأرجاء، والحديث عن الدهشة ليس له نهاية، ففي الواقع فإنهم دخلوا هنا إلى الجنة.

لقد كان قصر الأمير الأسطوري شيئاً يتوارى إلى الظل أمام العجائب الموجودة في العاصمة، وعندما اقتربت القوات الأسبانية إلى مقربة من السد الذي يربط مدينة تينوشتيتلان مع الجزء الآخر للعاصمة على البر، لم يكن الجنود يصدقون أعينهم.

" عندما رأينا الغرائب أما أعيننا، لم نكن نعلم ماذا ينبغي أن نقول، وفيما إذا كان كل ما نراه من مظاهر هي حقيقية ". هكذا كتب مؤرخ الحملة برنار دياز.

وعلى الأمواج الخفيفة لمياه البحيرة الضخمة، كانت تتمايل أعداد كبيرة من زوارق الهنود، وقد جاء الشعب على عجل ليشاهد الآلهة الغريبة، مئات الألوف منهم في الشوارع. وكانت القمم المغطاة بالثلوج للبراكين في الأفق تبدو شاحبة أمام البياض الناصع لمعابد الأهرام في المدينة المقدسة. الصناديق الملونة والهياكل المصاغة كانت تلمع في أشعة الصباح، ومن القصور التي لا حصر لها تنبعث أصوات النافخين في المحار، وتختلط أصواتها مع رطوبة الطبول المضمخة بالدماء. وكان اللحن الوحشي يحلق فوق الدمدمة الغير واضحة للشعب.

وعندما وصل الأسبان تجمع الناس في كتل بشرية كثيفة الطوابير. وتمتد أيادي من هنا وهناك إليهم ويلمسون بخجل الدروع الحديدية للجنود. وكانت الصرخات المكتومة للنساء تمتزج مع بكاء الأطفال. وعندما كانت الخيول المتراقصة مي مسيرها تدوس على الجموع، وتتراجع الناس للخلف، لكنها سرعان ما تعود وتتقدم إلى الأمام كالسابق في ازدحام، فيما كان الجنود يتقدمون إلى مقرهم، وقدم الملك موكتيسوما قصر والده للضيوف، فعسكر وهم يتحادثون عما شاهدوه وينظفون أسلحتهم وينصبون المدافع. وقد سمح لمجموعة صغيرة من الضباط فقط بمغادرة المقر، يتجولون في المدينة، ثم أخبروا زملائهم في الليل عن الغرائب والاكتشافات الكبيرة في مدينة المعابد.

" إنها رائحة حلوة حول الهرم الرئيسي، هناك تفوح رائحة الدم والبخور، ومن المدرجات نشاهد ساقية ناشفة من دماء الضحايا يميل لونها إلى الأحمر الغامق، وقد توقفت قلوبنا عندما هبطنا من الهرم، إذ أننا اكتشفنا في هذه اللحظة بقايا بشرية من الممكن أن تكون لمئات الألوف من الجماجم ".

ويبدو من كل هذا، وكأنه الجحيم، والأسبان الذين كانوا يبدون مسيحيين صادقين، غضبوا، وأقسموا على قطع دابر هذه الأعمال الكافرة الفضيعة عندما يتمكنون من السلطة والحكم، ولكن باستغراب كان عليهم الاعتراف بأن المدن كانت جميلة والحياة فيها منظمة.

" كانت المدينة تضم حوالي 60 ألف مسكن، وعلى الرغم من كثرة البشر، فقد كانت نظيفة مثل صالة رقص، وهم يستخدمون مياه الينابيع النقية بواسطة أنابيب بالغة الجمال والفن. وتنتقل إلى المدينة مباشرة، كما توجد حمامات ساخنة وهي مفتوحة لعامة الشعب، والناس محبون أن تكون الزهور في منازلهم وهناك الكثير منها، فذلك يسر الناظر وهناك أيضاً الأسواق وهي كبيرة

وفخمة، بل ويندر وجود مثلها في أسبانيا. ومن غير المسموح أن يحتال أحد على الآخر، أو أن يتلاعب بالأسعار، وهناك شرطة لمن يسيئ التصرف، كما هناك محكمة، ولم يرى المرء في حياته عرضاً كهذا للبضائع ".

كان قصر الملك موكتيسوما يضم الكثير من الملاحق، ولديه الكثير من النساء، ومن حدائق الحيوان الكثيرة التي أسسها الملك يصبح بالإمكان أن يطلع المرء على مستوى الحياة " وبقرب المنضدة يجلس وحيداً تماماً، وثلاثون من الخدم يقومون بحمله إلى المكان الذي جاء أحد الضيوف لمقابلته ".

ص. موستيسوما يذهب إلى الفخ.

ربما كان كورتيس قد فكرفي اتخاذ التدابير في حماية نفسه والقوات الصغيرة التي كاد يقودها من هجمات مفاجئة للأعداء ضده، فقد أصدر الأوامر ببناء أربع سفن كبيرة. ترى هل سيتم استخدامها في الحالات الجادة ..؟ كما تمت معاينة القصر من الأعلى إلى الأسفل وتهيأته لأغراض الدفاع. وخلال المعاينة والطرق، عثر الضباط على باب بني حديثاً، فأمر كورتيس بالحفاظ على سر هذا الباب. وينبغي أن لا يعلم الجنود بأمره أو ملاحظته. وبكل حذر، أعيد فتح الباب ورفع الجدار حجارة أثر حجارة، وأخيراً حلت لحظة أستطاع فيها الرجال الدخول إلى غرفة مظلمة، وعندما أوقدوا الضياء فيه، أدركوا أنهم قد وصلوا إلى هدفهم وإلى كل آمالهم وأحلامهم. فما كان أمامهم يقطع الأنفاس بالبريق واللمعان والفخامة والثراء، فهل ترى هو مخزن كنوز دولة موكتيسوما ..؟ القليل من الشهود العيان كانوا مبهورين أمام هذا الكنز، وقد أعيد بناء الباب، ولم يكن يفصل بين غرف القصر وهذا الكنز الهائل، سوى جدار، ومالعمل من أجل الحفاظ عليه وتأمينه ..؟

الأفكار حول الذهب قادت إلى تطورات لاحقة. وكورتيس كانت لديه خطة، وكان معلوماً بأنه يتوق إلى المحادثة والمفاوضة، وهكذا نجح الجزء الأول من خطته. والملك وافق فعلاً على الانسحاب من قصره ومقر عرشه الذي يسكن فيه الأسبان. وكورتيس سوف لن يتمكن بالاعتماد على بلاغته الخطابية ما لم يدعمه الضباط من مرافقيه، وذلك بتهديدهم الملك والأسلحة اللامعة التي كانت بأيديهم بقتله على التو وفي ذلك المكان، ما لم يتدخل كورتيس (بغضب) ويعرض الحماية على الملك الذي قبل (الدعوة).

والآن فالملك تحت سلطة وسيطرة الأسبان وهو ما سر كورتيس، فقد اصبح بيده كما كان يريد: إخضاع مملكة الأزتيك، ولكن أمراء المملكة بدأوا بالإعراض عن موكتيسوما، بسبب خضوعه وانحناءه للأسبان إنقاذاً لحياته.

ض : أخبار سيئة من الساحل

في تلك اللحظات التي كان فيها كورتيس يعتقد، بأن جميع السلطة في يده، وصلت إليه الأنباء عن خطر داهم. فعلى الساحل، هبطت وحدة عسكرية من أجل حماية الجنرال الذي شق عصا الطاعة ويأبى الانصياع.وبدأ كورتيس مستعيناً ببعض الأمراء من مناطق المكسيك الداخلية بتهيأة إجراءاته. وقوة الحملة التي نزلت على مناطق الساحل كانت تتألف من 900 رجل و80 حصان و20 مدفع، في منطقة فيراكروز Vera Crus. وقد كان رد فعل كورتيس سريعاً كالبرق، وفي مسيرات ليلية مع 200 من رجاله المخلصين قابل الوحدة العسكرية النازلة، ونجح في مباغتتها وبالتالي من حملها على العمل تحت قيادته، وبذلك أضاف 900 رجل إلى قواته العسكرية التي تعمل تحت رايته، وعاد إلى مقرة ظافراً.

وكان نائبه الفاريز Alvarez قد عاث في المدينة (تيموشتيتلان) في غيابه قمعاً وقسوة، ففي غياب القائد كورتيس كان قد عرض عدداً كبيراً من نبلاء ووجهاء الأزتيك إلى الذبح وهم عزل غير مسلحين، من أجل منعهم من الذهاب إلى احتفال في معبد، وعندما سار كورتيس هذه المرة في المدينة، كانت الشوارع خالية، بل وأنه كان يشاهد الكراهية في عيون الناس.

ق : في الحصون المحاصرة

كان كورتيس يمعن النظر بوجه مكفهر بين صفوف المخلصين له، وكان فقراء الشعب قد تجمعوا في الخارج. وصعد كورتيس سلالم القصر إلى السطح وقام بتفقد الحراس الذين كانوا ببنادقهم قد أتخذوا مواضع لهم خاف الجدار المسنن، كما كانت المدافع والقنابل الكروية مصفوفة بين الأهرام التاريخية، ويقف خلفها جنود المدفعية وبأيديهم فتيل الاشتعال جاهزاً، وبين الحين والآخر كانت الحجارة تتطاير من فوق السياج وتمضي لتقع هنا أو هناك. وانحنى القائد من فوق الحاجز، وتطلع إلى الشارع، والشيطان البني اللون كان هناك في الأسفل، ترى مالذي يريدونه ..؟

وظلت عيناه متعلقتين على مجموعة من كهنة التضحيات، كانوا يتحادثون مع ضباط الجيش الأزتيكي، كانوا يلوحون بأيديهم، ويشيرون باتجاه القصر. فشعر كورتيس بأنه يواجه أحداث شغب. ولو كان كورتيس يعلم ما قد سمعه الكهنة من العرافين والمنجمين وعن التوقيتات التي لديهم من توقيت للحظة الهجوم، لكان أستطاع أن يتخذ مجموعة من الإجراءات المضادة، فهو يريد أن يسبقهم ويلحق الهزيمة بالمخططات الوثنية الكافرة، وبتوجيهات العرافين. وصدرت الأوامر للجميع، أن يكون الجميع جاهزين غداً في الصباح الباكر في الساعة السادسة في مواضعهم للاستعداد للهجوم المنتظر.

وقبل بزوغ الشمس، بدأ قصف المدافع لبيوت المدينة، وكانت طلقات المدفعية تنفجر محدثة أصوات مدوية، تردد الأهرام صداها، ثم تحركت وحدة عسكرية أسبانية، وتقدمت بسلوك انضباطي في قتال شوارع، وكان كورتيس يتحرك بين المواقع القتالية ويتنقل من موقع لآخر وكانت حماسة القوات مطمئنة، وشيئاً فشيئاً كانت مقاومة العدو تشتد، وكان هناك دائماً المزيد من الجرحى والقتلى، وكانوا يخلون الخسائر من الخطوط الأمامية.

وأخيراً لم يكن بوسعهم الاحتفاظ بمواقعهم إلا بتقديم خسائر كبيرة، ثم قامت قوات الوسط الأزتيكية بالهجوم، وأصطدم مقاتليهم بالنيران المزمجرة التي تصبها المدافع. وكان احتقار الموت الجنوني ليس له حدود، واليأس تسلل إلى المجموعات الأسبانية، وكان الجنود مشحونين

بالغضب والإحباط. وعندما مالت الشمس إلى الغروب، أمر كورتيس قواته بإيقاف القتال الذي لا أمل فيه والانسحاب إلى المقر في القصر، وخلال ذلك لم تتوقف هجمات الأزتيك.

وفي المساء، جرى تفقد للخسائر وتقييم للموقف، وكانت الوجوه جادة. وكان كورتيس متفائلاً ومطمئناً، إذ كان بحوزته ملك الأزتيك ووجهائهم، وقد حان الوقت لاستخدامهم في مخططاته. وكان الملك موكتيسوما الثاني كارهاً لارتداء حلته الملكية، وبتردد صعد درجات القصر إلى الأعلى، فقد كان عليه أن يدعو شعبه إلى التزام الهدوء وبالتالي فقد بدا عليه أن يسدد قائمة الحساب للأسبان.

وعندما ظهر إلى شعبه، وهو الحاكم المحبوب على سطح قصره، هوت الجموع راكعة على ركبتها، وللحظة سكنت الضوضاء التي كانت تملأ الأزقة والحواري، ثم سمعت الجموع رجاء الملك إليها بالتزام الهدوء والنظام والتعامل مع الأسبان كأصدقاء. وبعد أن نطق الملك أولى الجمل، بدأت عاصفة من الاستياء، وكانت خيبة الملك لا حدود لها، فقد كان يعتقد بأنه ما يزال حتى تلك اللحظة يحتفظ بالسلطة على شعبه، وتحت وابل من الحجارة والرماح والسهام، تهاوى موكتيسوما على الأرض، وهو لم يفكر لحظة في بالبحث عن ستر يحتمي به.

وحمل الأسبان الملك الذي كان ينزف بسبب جروحه إلى القصر، ولم يسمح بأن تربط جروحه، إذ كان يريد الموت الذي أرتاح به بعد بضعة أيام فعلاً، ولكن كورتيس كان قد أصبح واثقاً بأن لا أمل له من الخلاص والانسحاب سلمياً من هنا.

ك . الهياج المشكوك فيه

بدت أوضاع الأسبان شبه يائسة منها، فقد كان عليهم مغادرة المدينة، ولكن كيف يمكن إنقاذ كنز الذهب معهم ..؟ وكيف بالإمكان أن يأخذوا معهم كل الأشياء العجيبة. فتح كورتيس باب غرفة الذهب، وكان كل جندي له الحق في أن يملأ حقيبته على قدر ما يستطيع حمله، والباقي يتركونه بقلوب كسيرة. وفي صباح يوم 30 / حزيران / 1520، بدأت الاستعدادات. وقد واجه الجسر القابل للتفكيك المشاكل منذ عبور الوجبة الأولى، إذ ما كادت طلائعهم تصل إلى الضفة الأخرى، حتى بدأت الهجمات الأزتيكية الغاضبة، وكان كلما مضى الأسبان قدماً في محاولاتهم في العبور فوق السدة الضيقة في ظروف قتال، كان الأمر ينطوي على المزيد من المخاطرة وتحمل للخسائر. وسقطت المدافع في الماء، أو أنها تركت في الطريق، وكان الهنود يركزون على إبقاء مسافة أمان بين زوارقهم المسطحة وبين الأسبان البيض، مع استمرار قذفهم بوابل من الرماح والسهام. وكان كورتيس يقاتل في المقدمة، وقد نجح مع 100 من مرافقيه السباحة والخوض حتى الوصول إلى اليابسة(القسم الآخر من المدينة) وبهذه الوحدة الصغيرة، شكل رأس جسر، وبتقديم خسائر هائلة، تمكن من تغطية انسحاب بقية قطعاته. وعندما حل المساء، كانت الضفة قد أصبحت مأهولة، ولكن الخسائر كانت مفزعة.

وكانت الوحدات الهندية المتحركة قد قتل أفرادها، كما أن المئات من الجنود الأسبان قتلوا أو جرحوا، والكنز الذي خسره الأزتيك (هذه الليلة) والتي كانت ستعتبر خزينة الشعب الأسباني، كان كورتيس يبكيه في معسكره، وكان الألم والحزن على جنوده قد غطى على ذلك.

ل . الأعجوبة أتومبا

كما يهب السرب الصغير، حدث عندما تقابل الأسبان مع الهنود المتفوقين عليهم بآلاف المرات في الميدان المفتوح، وقد تنحى الأسبان عن الأزتيك إلى الطرق الجانبية، وكان عناصر الاستطلاع الأزتيكية موجودة في كل مكان، وبذلك فلن يكون بوسع كورتيس أن يقود وحدته الصغيرة بدون عوائق إلى مناطق حلفاؤه تلاسك التيك Tlaskaltek الكائنة 100 كيلومتر تقريباً شمال العاصمة في الوادي الأعلى أوتومبا Otumba حيث سيتقرر المصير هناك.

في صباح يوم 8 / تموز / 1520 أنسحب الأسبان إلى أطلال مدينة المعابد القديمة تيوتيهواكان واجتازوها، وهم لم يكونوا يعلمون أن الجبل الصغير إلى اليسار منهم، كان هرما، وكان الجنود الأسبان قلقين اشد القلق إذ أنهم كانوا قد علموا بأن القوة الرئيسية للأزتيك تتجمع في هذه المنطقة من أجل إبادة (الآلهة البيض).

وبعد اتخاذ التدابير المهمة، واصلت القوة مسيرها، وكان كورتيس على صهوة حصانه في المقدمة. وكان الرتل يسير لعدة ساعات في الحقول وبين أشجار الصبير التي كان الثمر يتدلى منها كالشمعدان، وفجأة على بعد أقل من 100 متر، انفتحت أمام الأسبان منطقة جرداء، أوقف كورتيس جواده في هذا المكان وسمح لجنوده المتعبين بالترجل والاستراحة على الأرض.

وأول ما شاهده قائدهم، كان شيئاً فريداً ومفزعاً، فإلى آخر ما يمتد إليه البصر، إلى حيث كانت الجبال تحدد تلك المنطقة، كانت قوات الأزتيك تحتشد، جموع هائلة. ووسط هذا الجمع، كانت راية الأزتيك ترفرف، وكان يمكن بوضوح، رؤية النسر الذي يقبض بمخالبه على الأفعى ثم شمس المحاربين (ما زالت هذه الموز تمثل علم جمهورية المكسيك اليوم. المترجم) .

وكان الموقف يبدو بلا أمل، ترى هل أقترب الأسبان من النهاية ..؟ تطلع كورتيس إلى راية الأزتيك، ولم ويكن لديه الكثير من الوقت، وكان كورتيس في الأشهر والأسابيع الأخيرة قد درس بعناية واهتمام تقاليد وعادات الهنود، فقد كان شخص ما قد أخبره في وقت ما، بأنه يكفي احتلال المعبد الرئيسي للأعداء من أجل حملهم على الاستسلام، وكورتيس يعلم أيضاً، بأن ساحراً مقدساً يحمل راية الأزتيك التي تخفق بالقرب من القيادة العامة للقوات الأزتيكية.

وشرع كورتيس يفكر، ومن خلال معرفته لأسلوب قتال الأزتيك، وترتيب قواتهم، حيث تتمركز قوة مقاومة العدو في الوسط، وإذا كان اقتحام رتل قتالي لعمق العدو وانتزاع الراية منهم ممكناً، ترى ماذا سيحدث ..؟

لكن القائد الأسباني تراجع، إذ بقوته الصغيرة هذه، يعتبر الدخول في قتال مفتوح لا يعني سوى شيئ واحد، وهو الانتحار. أشار كورتيس بيده إلى مجموعة كانت بالقرب منه، وكان من ضمنها واحداً من أفضل الفرسان، ثم تحدث إليه بضعة كلمات هامسة، قفز هذا الفارس بعدها مخلفاً وراءه غمامة من الغبار.

" أيتها السيدة العذراء، إنها النهاية ..! ها إنهم يركبون .. يا إلهي أنقذنا ".

وكان الجنود قد أجروا حساباتهم من كافة الجوانب، ولكنهم فوجئوا بأن النهاية ستحل هكذا سريعاً، ترى هل مس الجنون قائدهم المحبوب ..؟

" يا إلهي .. يا إلهي.. ماذا يفعل الآن.. الرجل الرائع ..؟ ".

والآن أصبح الفرسان وسط صفوف الأعداء، يساراً ثم يميناً بين صفوفهم.

" أركعوا أيها الناس، رجاء لقد خسرنا القائد ..! ".

لقد تحقق المستحيل، إذ أصيب الهنود بالشلل مقابل عوم وجسارة الفارسين، والمباغتة كانت تامة، ولم يستغرق عمل الفارس الجنوني سوى بضعة دقائق، إذ شوهد كورتيس أما الراية مباشرة، بينما كان خاطف العلم قد أبعد الهندي عندما صدمه بجسم حصانه، كان كورتيس نفسه قد صدم القائد العام الهندي، وبعد قتال قصير سقط العدو، وبصرخة نصر مزق كوورتيس الراية التي كانت تلامس الأرض، ثم لوح بها علياً فوق رأسه، وهنا أنهار جيش الأزتيك الضخم راكعاً على ركبته، ثم ولى الأدبار هارباً.

بضربة واحدة غدا الأمر واضحاً: لا يقاتل هكذا سوى الآلهة كويتسا لكواتل، وبدون مضايقة من الأزتيك الذين كانت معنوياتهم قد انهارت، تمكن الأسبان من مواصلة الانسحاب والوصول إلى أرض تلاسكالتيك حيث هناك الأمان والإنقاذ.

م . إبادة مملكة الأزتيك.

رحب التلاسكاليك المخلصون ببقايا القوات الأسبانية، ونال كورتيس عناية تليق بآلهة، ولم يكن الهنود يشكون لحظة واحدة بأن مقاتليهم قد سقطوا شهداء من أجل آلهة الصباح. ولكن سعادة كورتيس كانت في كسبه 500 رجل هم رهن إشارته لمساعدته، وسيأتي اليوم الذي سيجهز فيه حملة جديدة تضم أفراد من أبناء الشعوب الهندية من أجل أحتلال تينو شتيتلان، وأيضاً لاستعادة الذهب الذي تركه هناك.

وقد أنصرف من فوره لإلى العمل بجدية، وفي 30 / أيار / 1521 كانت الحملة قد أصبحت جاهزة. وبسفن شراعية سريعة ذات القدرة على المناورة أكثر من الزوارق الحربية الهندية، سيطروا على البحيرة التي تقع عليها العاصمة، كما أنهم حطموا أنابيب المياه النقية التي تلبي حاجة الاحتفالات، ولم يستسلم الأزتيك رغم القتال الضاري، وبرغم الجوع والمرض، فقد رفضوا كافة عروض الاستسلام.

وأسبوع تلو الأسبوع، استمر تبادل القتال. وكان كواتيموك Kuatemoc، الشاب الفخور بنفسه، والذي كان القائد العام للأزتيك، يضع آماله على النجوم، إذ أن الحركة في السماء كانت تدور بما لا علاقة له بالوضع العسكري الذي لا أمل يرتجى منه.

وكان موقف النجوم والحسابات المتعلقة به لا تبقي سوى 584 يوماً لكي تلتقي بفينوس ونجمة كويتسالكوتال في السماء مع الشمس. إن قرص الشمس الهائلة سوف تجعل فينوس لفترة قصيرة

في ظلام: آلهة الشمس هويتسيلوبوشتيلي ينتصر على نجمة الصبح كويتسالكوتل، وهذا لا يعني سوى بأن قوى الآلهة ستكون بدون فاعلية وقوة.

وعلى الرغم من أن الرائحة الكريهة للجثث على جدران المدينة كانت نفوح بشدة، والسكان يعانون من الجوع، كان على الأسبان أن يشاهدوا زملائهم الأسرى لدى الأزتيك كيف يقدمون كضحايا للآلهة الشمس على قمة الأهرام.

وعندما اقترب اليوم الذي تختفي فيه فينوس في السماء، فرت حتى العناصر الهندية من الشعوب المؤيدة للأسبان، ولكن على الرغم من ذلك، فقد استمر القتال بدون توقف، وتساقطت الحصون المحاصرة الواحد تلو الآخر، وعندما ظهرت فينوس مرة أخرى في السماء، كان على الأزتيك أن يلاحظوا، بأن الآلهة البيض ينتصرون حقاً، وإن الأمير كواتيموك خسر معركته، وقد حاول الفرار مع ضباط ركنه في زورق كانو سريع، ولكن الأسبان تمكنوا من إلقاء القبض عليه.

ما جرى في المدينة المحتلة هو صورة من الوحشية، فتراكمت الجثث كالجبال، ومن نجا من الموت، قد غدا هيكلاً عظمياً من الجوع، ولم يكن الأسبان يهتمون بذلك، فقد كانوا يبحثون عن كنز الذهب، الذي لم يجده أحد. ولم ينفع أيضاً قيامهم بتفتيش أسطول سفن الأمير كواتيموك بحثاً أيضاً عن الذهب في مخابئ السفن، وجرى تعذيب الأمير لحمله على الاعتراف، وبعد أشهر رمن التعذيب بتعليقه من أقدامه إلى الأعلى، أخذ كواتيموك بوفاته سره معه إلى القبر، ولم يشاهد إلى حد اليوم أحداً كنز الأزتيك.

والأسبان الذين أصيبوا بخيبة أمل وغضب، لم يدعوا في مدينة تينوشتيتلان حجراً على حجر في البحث عن الكنز، ومدينة المعابد سويت مع الأرض، ولنفس السبب فارق كثير من البشر الحياة، ونهضت مكانها مدينة أسبانية جديدة هي: مكسيكو سيتي.

6 : زيارة من أوكساكا

أستيقظ ألبرتو عندما إصابته أشعة الشمس بحرقة خفيفة، حك على أثرها أرنبة أنفه، ترى مالذي جرى له ..؟ لقد كان بأفكاره في عالم آخر تماماً، هل كان كل ذلك حلماً ..؟ ثم تبين له، بأنه كان قد أستمر وحتى ساعة متأخرة يقرأ، نعم صحيح، فها هي الأوراق التي كان الخال قد كتبها وأعطاها له، وبثياب النوم أسرع الشاب إلى مائدة الإفطار، ولم يكن هناك بالأسف، فقد كان يريد أن يتقدم ببعض الأسئلة إليه، فمن المؤكد أن الخال قد تعمد أن يتركه ينام إلة هذه الساعة، فقد كانت العشرة. وبخيبة أمل ذهب البرتو إلى الحمام.

في الساعة العاشرة قرع الجرس، وهنا تقدم رجل بلون القهوة المحروقة إلى الداخل، وكان يبدو كرياضي، توجه هذا الشاب إلى البرتو يصافحه قائلاً: " أنا بيدرو ديل آمو، وأنت بالتأكيد البرنو، لقد أخبرني خالك عنك، فنحن نعرف بعضنا منذ فترة طويلة، فأنا أجلب له بين الحين والآخر بعض القطع من أواكساكا، من الهنود ..! ".

جلس بيرو على أحد الكراسي ذات المتكأ ثم أشعل لنفسه سيكارة.

" الخال بيبا الآن في المدينة، ولن يأتي بالتأكيد قبل منتصف النهار ". قال البرتو وبدا كأن ديل آمو يريد البقاء.

" لا يهم، فسوف أنتظره هنا حتى يعود ".

" وهل أستطيع أن أخدمك بشيئ ".

" شكراً، بإمكاننا أن نتجاذب أطراف الحديث، إن شئت، ترى هل أعجبتك المكسيك ..؟ ".

" نعم، إنها رائعة جداً " أجاب البرتو.

" والآن ما عليك إلا المجيئ إلى أوكساكا، فأنا أجدها أفضل من أي مكان آخر، أني أجد في مكسيكو الكثير من البشر في مساحة محدودة ".

" وهل تعمل هناك في الريف ..؟ ".
" في المعنى المجرد نعم، فأنا معلم في قرية ".

وكست ملامح الدهشة وجه البرتو، مما حمل بيدرو على السؤال: " ألا تعتقد ذلك ..؟ لماذا ..؟هل بيدرو المعلم في أسبانيا يبدو بصورة أخرى ..؟".

أرتبك البرتو وخجل فيما كان بيدرو يضحك من كل قلبه وقال " لا تخف، فإن خيزرانتي ليست معي، إني لا أحتاجها حتى .. فإن الهنود الذين عندي لا يحبون شيئاً كهذا ".

" عند أي من الهنود تعمل يا سيد ديل آمو ..؟ " سأل البرتو.
" عند الزابوتيك الجبليين Zapotek، ولكن ناديني بيدرو فقط، فإني قد أعتدت على ذلك، ثم أننا نريد أن نصبح أصدقاء ".

سر البرتو لذلك، وقد استغرب بأن يرى معلماً على هذه الصورة، ويدرس الهنود ..! إنه رجل لطيف ..!.

" بيدرو، هل قلت أنك تجلب بين الحين والآخر للخال بعض التحفيات، ولكن كيف دخلت إلى هذه الأشياء ".

" بكل بساطة، فأنا أجمع الأعمال اليدوية للهنود، وفي بعض الأحيان يجلبون لي أيضاً الأشياء التي يجدونها، وأحياناً أتحمل المتاعب، فالهنود لم يفقدوا مهارتهم اليدوية، وبالذات الزابوتيك منهم، الذين يصنعون منذ القدم وإلى الآن المنسوجات والقدور ".

" لقد حكى لي الخال عنك، إنني أريد أيضا أن أتعرف على الزابوتيك ".

" إذن عليك بكل بساطة أن تزورني، عندما +تسنح لك الظروف، فهناك عندنا في الجبال، تجد الكهرباء والماء النقي في الأنابيب، وإذا كان علي أن أذهب إلى قرية نائية، فعلي أن اسير على أقدامي يومياً ".

" آه .. هذا لا يهمني أبداً، هناك في أسبانيا لدينا أيضاً جبال نائية وهادئة، وأنا أستطيع التسلق جيداً، ولربما أني أستطيع مساعدتك أيضاً، أقصد إنني أستطيع أن أساعدك في حمل الأشياء، فأنا قد تعودت على ذلك، وأعرف حتى الرماية ". قال البرتو.

" دعك عن ذلك، فذلك ما لا يحبه الهنود عندنا ..! ".

أحمر وجه البرتو، فهنا أظهر بأنه لا يمتلك فكرة، أو تصور صحيح عن الحياة في عالم هنود الجبال، وأستطرد بيدرو قائلاً:" الأمر لم يعد موجوداً عندنا، أني آمل ذلك على أية حال، وآخر طلقات مكانت قبل أربعة أعوام تقريباً عندما أعتقد زميلي يوان أن الرجال الحمقى قد أخذوه على قدر فهمهم لأنهم يضنون بأن المعلم يريد أنه سيأخذ منهم أولادهم، وبسبب أنهم يخافون من خرافات العفريت ذي الأفواه التسعة، لأن لهم موقفاً صلباً ضد كل شيئ جديد حتى بالنسبة لي، العمل لم يكن سهلاً في البداية، وعندما جئت إلى الجبال لأول مرة قبل بضع سنوات، من أجل بناء مدرستي، في ذلك الوقت كانوا يكرهوني أيضاً، وفي الليل لم أكن أعلم فيما إذا كنت سأبقى على قيد الحياة حتى الصباح أم لا. واليوم فالهنود هم أفضل أصدقائي، وكارلوس البدين الذي أراد قتلي إذا سنحت له الفرصة، جاء في يوم من الأيام إلى المدرسة ليتعلم النوتة، واليوم فهو الذي يجلب الأطفال للغناء والعزف، ولم يعد يشرب ويوفر كل بيزو لديه لأن عليه أن يؤمن مواصلة دراسة أبنه. حقاً إن الزابوتيك هم من أفضل الناس، وعلى المرء فقط أن يعلم كيف يتعامل معهم، تعال وتعرف عليهم ".

هز البرتو رأسه موافقاً فقد كان يفكر بذلك جدياً وقال " هذا إذا سمح لي الخال ببعض الوقت".

" سوف أسأله ذلك، ومن المؤكد أنه لن يرفض ".

كان البرتو يستمع إلى ذلك بإعجاب، ولطالما كان يتمنى القيام برحلة كهذه، تطلع إلى ساعة معصمه وقال: " ها قد حان وقت مجيئ الخال ".

7 : عند مادونا غوادالوبه

استمع الخال بيبا إلى خطط إلى خطط كليهما (البرتو وبيدرو) لم يكن لديه سبب ليمتنع في ذلك، بل على العكس، فقد فرح بأن يتعرف البرتو بنفسه على جنوب الوادي المرتفع بسرعة هكذا. وعندما يكون مع بيدرو، فذلك يعني بأنه بين أفضل الأيادي. وقد لاحظ الخال بيبا في نفس الوقت أيضاً، بأنهما سعيدان بتعارفهما.

ولم يضع الخال إلا شرطاً واحداً، ولاحظ أن البرتو قد أبتسم لذلك، فهو كان يريد أن يضع بيدرو خطة الطريق بحيث يتمكن من مشاهدة تينايوكا ثم تولا والمدينة المقدسة بيوتيهاوكان Teotihaucan وقال الخال:" لأنني كنت قد وعدته، وأنكم لن تفقدوا في ذلك إلا يوماً واحداً ".

وافق بيدرو على ذلك حالاً وبدون اعتراض، بل أنه وجد الفكرة جيدة جداً في أن يشاهد الشمال مرة أخرى، ولكنه وضع تحديداً واحداً لذلك الأمر الذي استحسنه الخال أيضاً.

" أليس من الأفضل عندما لا نضع الكثير في برامجنا، تيوتيهواكان يستطيع البرتو أن يذهب إليها فيما بعد معي، ففي البدء عليه أن يهضم أشياء أخرى. تيوتيهواكان تقع بعيداً عن طريقك، أليس كذلك يا سيد بيبا، وإنه لشيئ كثير أن يشاهد المرء دفعة واحدة وفي يوم واحد 1500 سنة من الحضارة المكسيكية. يكفي عندما نشاهد آثار من القرن الثامن عشر ونقف عند تولتيك Toltekلذلك فأني أقترح بأن نسير عبر غوادالوبة وفي الليل نبقى في تولا Tula ". وقد قبل هذا الاقتراح بالإجماع.

وفي الصباح التالي أنطلق كلاهما في السفرة، وكانت الشمس لم تبزغ بعد، والمصابيح ما تزال مضاءة في أرجاء البلدة وحتى حركة السير في الشوارع لم تكن قد هبت بعد، عدا بعض سيارات التاكسي الملونة التي تلون صورة الشارع.

كان بيدرو يقود سيارة للطرق غير المعبدة (جيب)، وكل ما فيها مضعضع، ولكن محركها كان جيداً أثناء السير، وكانت قرية سان جوزيه التي يعمل فيها بيدرو معلماً أطفال الهنود للقراءة والكتابة، كانت تقع على ارتفاع 3 ألاف متر, وهناك لا يمكن السير إلا في سيارة كهذه (سيارة تصلح للأراضي غير المعبدة، جيب وما شابه ذلك ـ المترجم) كسيارة بيدرو حيث لا يمكن للسيارات الحديثة أن تقاوم في تلك الطرق غير الممهدة أكثر من شهر وواحد، فتلك الطرق تضعضع أي سيارة وتعرضها للتفكك.

مال بيدرو إلى شارع ريفورما، وهو شارع عريض فخم وحديث، يضم الكثير من الساحات والتماثيل، ثم واصل السير في شارع أفينيدايوارس. ولم تكن المحلات الأنيقة قد رفعت بعد الواقيات الحديدية عن واجهاتها. وإلى اليسار هناك البناء الفخم للمسرح بيلاسأرتس يبدو رائعاً في ضوء المصابيح، ثم أشجار النخيل العملاقة أمام البناية وكانت ظلالها القاتمة تتأرجح، كما كان بالإمكان التعرف بوضوح أن قطع الحجر الضخمة للمسرح، منذ أتمام البناء قبل ثلاثين عاماً كانت قد غطست ثلاثة أمتار في الأرض الرخوة، والمدخل الوحيد كان قد أصبح الآن في مستوى سطح الأرض.

وفي تقاطع سان جوان، أضاء اللون الأحمر، وكان عليهم الامتثال والوقوف. وفي سيارتهم المكشوفة تلك، وفي ساعات الفجر المبكرة، كان من الطبيعي أن يشعروا بالبرد الشديد، ولكن

السيارة (بسبب كونها جيب مكشوفة) كانت تتيح رؤية ممتازة إلى جميع الاتجاهات، ثم أشرأب البرتو بغتة عندما حاول أن ينظر إلى آخر طبقة في عمارة شاهقة، والتي كانت بالقرب منه، وقدر أنها تضم 40 طابقاً، ثم جاء الضوء الأخضر وسارت السيارة إلى المدينة القديمة، وفي زوكالو، أنحرف بيدرو إلى اليسار، ثم قاد سيارته من جانب الكتدرائية وسار عبر جيسوس كارانزا إلى كالزاداغوادالوبه، والآن يمتد من هنا الطريق إلى الشمال. وفي غضون ذلك كانت الشمس قد أشرقت، وفي نهاية الشارع لمح البرتو بوابة حديدية ضخمة، و خلف تلك البوابة، وفي ساحة ضخمة، كنيسة كبيرة وهي تستند إلى تل صغير، وعلى قمة التل كانت هناك فرقة موسيقية تبرق آلاتها وتلمع في الشمس.

" هل هذه هي كنيسة غوادلوبه " سأل البرتو. وهز بيدرو رأسه أن نعم.

" دعنا ندخل ونلقي نظرة على ساحة الكنيسة ونشاهد المصليين ".

وبرغم أن الوقت كان مبكراً، كان عدد كبير من زوار الكنيسة يأتون ويذهبون، وأبواب الكنيسة مشرعة على آخرها، والمصلون في قدوم وذهاب. سحب بيدرو البرتو جانباً..

" أترى ذلك، أكثرهم هنود الذين يأتون إلى هنا، يركعون للقديسة غوادلوبه، والمرء يتعرف هنا على أزياء متعددة، ومنها نفهم أنهم قد أتوا من أنحاء مختلفة من أميركا ".

" هذا ورع وتدين وخوف من الرب، وهو أمر وارد في جميع خرافاتهم " قال البرتو.

" ولكن عليك أن لا تنسى، بأن السيدة العذراء السمراء في غوادلوبه، إنها الحامية المقدسة لكافة الهنود، ويتشرفون بها في مكسيكو بوصفها " ملكة أميركا " ".

" ترى ربما اليوم هو يوم احتفالها، لأن هناك عدداً كبيراً من المصلين والزوار ".

هز بيدرو رأسه.

" هكذا تمضي الأمور هنا يوماً فيوماً، واحتفالها هو في يوم 12 كانون الأول / ديسمبر، ويبدو المنظر هنا مختلفاً، ويجب أن تشاهد ذلك بنفسك، وسف لن يكون صعباً عليك، نعم إن الهنود يجلبون الضحايا العظيمة ويأخذون، ويتحملون مشاق كثيرة التي نادراً ما يستطيع الرجل الأبيض تحملها في سبيل أن يتمكن من الصلاة يوماً أمام حامية الهنود نرو في حياته. وفي بعض الأحيان، ولا سيما في أيام الأعياد والاحتفالات يرقصون(للأم) رقصاتهم القديمة أيضاً ".

" يا للخسارة أن لا يرقص هنا اليوم أحد، فلدي رغبة شديدة في مشاهدة الرقص، ولكن هل بإمكانك أن توضح لي يا بيدرو، لماذا بالذات هذه الكنيسة والسيدة العذراء حامية غوادالوبه مقدسة هكذا ..؟".

أطرق بيدرو يفكر، كيف سيجيب على هذا السؤال بأفضل أسلوب ثم قال:

" لو أنك تعلم شيئاً من الخلفيات، لكان بالمستطاع إجابتك، لأن أم الأرض بالنسبة للقدامى، مع السيدة الأم في ديانتنا في هذا الوضع من المكسيك قد اندمجت وأصبحت واحدة ".

وعندما تطلع إليه البرتو بتساؤل، تابع بيدرو قائلاً:
في العهود الأزتيكية، كان هناك فوق تلال تيبياك Tepeyak حين نشاهد الآن الفرق الموسيقية تبرق وتلمع في أشعة الشمس، كان هنا معبد آلهة الأرض غواتليكو، التي هي الأم الحنون للأزتيك وهم يسمونها هكذا، والآلهة غواتليكو (حسب اعتقاد الأزتيك)هي التي منحت الروح للجسد، والخضرة الدائمة، والذبول الدائم والموت أيضاً، ولونها الأبيض دليل على البراءة والطهارة، وعندما جاء الأسبان إلى هذه البلاد، هدموا وقوضوا مقدسات أم الأرض، وبرغم ذلك، فقد استمر الهنود بأداء الزيارة إلى التلال سراً، للتوسل إلى الأم لتلبية الطلبات. وفي عام 1531 حدث في ليلة شتاء بالغة البرودة، كان الهندي العجوز جوان ديغو قد صعد إلى التل في الصباح الرمادي ليتحدث مع الأم المقدسة، وهنا ظهرت له .. هبت الأم المقدسة وقالت له: أذهب إلى أسقف مكسيكو وأبلغه، بأنك قد شاهدت الأم المقدسة، وقل له أيضاً بأنها رغبتي أن يشيد هنا في هذا الموقع كنيسة ..! ".

وقد فعل العجوز ما بلغ به، وأسرع بدون تردد إلى قصر السقف، ولكن الحراس لم يسمحوا له بالمرور، وضحكوا عليه. وعاد العجوز محبطاً إلى التل، ونادى السيدة الأم ليشكو لها. وظهرت له السيدة العذراء مرة أخرى، في فتحة الهلال، وتمكن من التعرف بوضوح على وجهها الجميل وعلى ملابسها، وكانت ترتدي ثوباً رهبانياً أبيضاً وفوقه عباءة زرقاء مشيكة بنجمة ذهبية. ثم أن السيدة العذراء واست العجوز بأن قالت له: " أنهم سيصدقوك، إذا أخذت لم تلك الزهرات هناك ..! ".

وفعلاً، وفي ذروة ذلك الشتاء القاسي البرودة، فقد أزهرت بين الصخور زهرة رائعة قام العجوز بقطفها، والآن وعندما أظهر الزهور، أخذه الحراس إلى الأسقف. وبارتباك تام، قام العجوز بشرح الأمر أمام هذه الشخصية الكبيرة، وقدم له الزهور. وخر السقف على ركبتيه، إذ أنه تعرف في الحقيبة والمنديل الذي كان الهندي قد وضع فيهما الزهور، على صورة الأم المقدسة وهي تطابق الأوصاف التي قدمها العجوز.

وهكذا شيدت الكنيسة، ومنذ ذلك الوقت، والسيدة العذراء السمراء تبتسم بود ومحبة لأطفال الهنود. ولكن الفريد في الأمر هو أنها ترتدي زي الضحايا الأزتيكيين: الرداء الأبيض والمعطف الأزرق السماوي المزين بالنجوم. والآن أصبح مفهوماً خصوصية هذا المكان، ومنذ أن تم بناء الكنيسة، لا يدخر الهنود أي تضحية من أجل رؤية (ملكة أميركا) والصلاة لها ".

تطلع البرتو بتأمل وإشفاق، كيف أن هندياً عجوزاً راكعاً على ركبتيه العارية المدماة على أبواب الكنيسة، وكانت نغمات الأرغن تصدح يتعالى الغناء في الهواء، رفع العجوز يديه إلى السماء وبدأ وجهه الجامد بالإشراق .

" دعنا نذهب ..! " قال بيدرو وسحب البرتو الغارق في الأفكار، وفي طريقهما إلى السيارة صادفتهم فرقة موسيقية مع الأعلام، وأطلق شخص ما في الساحة صواريخ في الفضاء، ونسوة هنديات كن قد ربطن رؤوسهن بمناديل سوداء وطويلة، هبطن من التراموای، وكان فريق لكرة القدم بملابسه الرياضية يسير أفراده بشعورهم السوداء بقوة، كانوا يحملون الزهور ويغنون.

وبعد أن تحركت السيارة بهم، وساروا لبرهة من الوقت صامتين، بدد البرتو الصمت بقوله:

" إنني أشكرك يا بيدرو على هذه الرحلة الصغيرة، أرجو أن تفهم بأنه من الصعب لي أن أستوعب كل شيئ هنا، فكل شيئ هنا جديد، كلما سمعت وشاهدت يزداد الأمر .

8 : هرم الأفاعي

لا تفصل غوادالوبه عن تينايوكا Tenayuca، سوى بضعة كيلومترات. وهناك وفي مجال العاصمة يقع الهرم الأزتيكي الوحيد الذي ما زال باقياً بحالة متوسطة. ويمر المرء في طريقه إلة هناك، بمصانع وبيوت الفقراء، ثم تنتهي المدينة. كما يشاهد المرء مع مواصلة السير في الطريق، سدود الري وقنوات. وتوجد هناك أشجار قديمة عالية، وتتقدم الجبال الجرداء إلى الأمام ويقاطع الطريق الآن القناة منحرفاً إلى اليمين صعوداً إلى الجبال، وهناك بيوت بسيطة على الطريق ودكاكين وأكواخ لبيع المرطبات.

وعلى مسافة 200 متر فقط، تقع على الجانب الأيمن أطلال هي عبارة عن مقاطع كبيرة، ويبدو وكأنها جدران مائلة متصاعدة إلى الأعلى، ثم يلاحظ المرء وجود سلالم ومدرجات. وفي الزاوية الخارجية، وإلى الجانب الأيمن، هناك رؤوس مبتسمة ميتة في توابيت، إنها قبور الضحايا، وهي بقايا الموتى للكهنة وأبناء الأمراء الذين قدموا كضحايا في آخر احتفال من أجل ولادة الشمس والتضحية من أجل العالم. وإلى يمين ويسار الدرج الصاعد وعلى جوانب البناء، هناك مكان يطل مباشرة على سطح الهرم. صور ورسوم على الحجر، الأسنان مكشرة، أفاعي على شكل تنين في صفوف طويلة.

كان الأزتيك يتمثلون الشمس، ويرمزون إليه بصور عديدة، إنهم يرونه كأفعى ذات ريش تتسلق قبة السماء، وكنسر في الأعالي، وأيضاً كنمر أو كالبوما (البوما هو الأسد الأمريكي / المترجم)

صعد البرتو وبيدرو الدرج إلى سطح الهرم، هنا حيث أكثر الأهرام قدسية ومكاناً للتضحية، ومن القمة وهو مكان مسطح، ألقى البرتو نظرة، ومن هذا المكان المرتفع، كانت رؤية الأفاعي شيئاً عجيباً، وإلى جانب الأهرام، شاهد الآن شيئاً آخر: أشكال مسطحة صغيرة ومن بينها مرة أخرى، أفعى جدارية. فقال البرتو " من هنا، من الأعلى يلاحظ المرء فقط شكل الدرج الذي يقود إلى الأعلى ".

" مباشرة إلى السماء " قال بيدرو " قائمة هكذا كما تصعد شمس الجنوب عندما تتسلق إلى أعلى ذروة في قبة السماء ".

تطلع البرتو إلى بيدرو مستغرباً وسأل " وما علاقة صعود الشمس مع الهرم ..؟ ".

" الكثير .. إذ أن الأهرام هي في الواقع ليست سوى رسم تقليدي لقبة السماء، الشمس تصعد تدريجياً من مستوى سطح الأرض إلى أعلى نقطة، ثم تميل مرة أخرى للأرض حتى تغطس وتختفي في مملكة الموتى ".

" هل كان الأزتيكيون القدامى يعتقدون حقاً بأن الشمس تتسلق فوق قبة السماء ..؟ الآن أصبح بإمكاني أن أتصور لماذا يعاد بناء وترميم الهرم كل 52 سنة، إذ أن التقويم الشمسي القديم كان سارياً وإن الشمس ينبغي أن تتخذ لنفسها مساراً جديداً في السماء، هكذا ينبغي على الإنسان أن يبني خط سماء جديد فوق الأهرام القديمة، هكذا كانت الحاجة إلى أهرام عديدة ومن فئات مختلفة ..؟ ".

" لقد أعيد ترميمها عدة مرات وبناءها سبع مرات يا البرتو ".

" سبع مرات ..؟ لحظة .. كم هو حاصل ضرب 52 × 7، إنها: 7 × 5 = 350، نعم 364 سنة أستغرق العمل هنا، أنه لوقت طويل جداً حقاً، إذن كان ذلك بالتأكيد في القرن الثاني عشر بعد الميلاد ".

ربت بيدرو على أكتاف البرتو " أيها البروفسور الأعظم، أرفع قبعتك أيها البروفسور، إنك على الطريق الصحيح " وضحكا وهما يهبطان.

" أي أقدام صغيرة كانت لديهم ..؟ " هتف البرتو، وبسط قدميه ليبرهن أن الدرجات كانت صغيرة لتتناسب مع أقدامهم.

" ربما أنهم كانوا يرقصون صعوداً على أطراف أصابعهم " قال بيدرو.

وعندما قصدا أحد الأكواخ لتناول المرطبات، تناولا بسرعة عصير البرتقال، كان البرتو فخوراً بما توصل إليه في حساب زمن بناء الأهرام. " الواقع وبكل بساطة، لتقرير عمر أحد الأهرام، ينبغي أن يعلم المرء عدد الدرجات ".

" ولكن هذا الأمر فقط عند أولئك التي شيدت في عصر الأزتيك يا عزيزي، ولكن الأمر كان مختلفاً عند التولتيك الذين كانوا سابقين للأزتيك، وكذلك بالنسبة لأزتيك المناطق المرتفعة، فذلك ما يمكننا أن نشاهده في غضون ساعة، إذن إلى تولا في بلاد التولتيك Toltek .. !

9 : عاصمة آلهة نجمة الصباح

منذ وقت قريب، يتواجد طريق بمرور السريع (أتوستراد / أوتو بان) والذي يتجهمن العاصمة مكسيكو إلى الشمال. وباستخدام هذا الطريق يصل المرء خلال ساعة واحدة تماماً إلى تولا Tula من أحد فروع هذا الطريق. وبعد بضعة كيلومترات عبر التلال والجبال، هناك على الجانب الأيسر منه أطلال أهم عاصمة للتولتيك على هضبة صغيرة فوق الطريق. والمجال الداخلي للمعبد ما يزال مطموراً إلى حد الآن، ولكن هناك ما يكفي من المعطيات لكي نعلم، بأن ملكاً كاهناً أسطورياً كان موجود فعلاً هو: كويتسالكوتل.

والأزتيك لا يعتقدون بأنه كان إله، والواقع أنه كان فعلاً كاهناً مهماً وحاكماً في نفس الوقت، ولأنه كان قد خدم كاهناً للآلهة نجمة الصباح كويتسا لكوتل، وقد حمل نفس الاسم أيضاً، إذ أنه كان في الواقع يسمى (قصب 1) وذلك لولادته في عام قص 1 وأسموه سي ـ اكتال ـ توبيلزين Ce-Acatal- Tpizin، وكانت تولا مقراً لإقامته وحكمه، واستغرب البرتو في البدء وجود تمثال يبلغ خمسة أمتار طولاً وهو من الصخر أمام بقايا هرم كبير.

" هذا التمثال لمحارب عملاق " قال بيدرو " كان في وقت ما على هرم آلهة نجمة الصبح، كان يحمل السقف الخشبي للمعبد وقد وجد داخل الهرم بين الخرائب والأطلال، ومكتشفي تولا يقدرون بأنه قد تدحرج عندما دمرت المدينة بصورة نهائية في القرن الحادي عشر ".

" وهذا الهرم كان قد شيد بدون أن تجري عليه ترميمات ..؟ ". سأل البرتو " وما هذه الأحجار الغريبة التي تبدو هنا، إنها تبدو وكأن الهرم كبثرة (مفرد بثور)على وجه الأرض ..! ".

وتقدم البرتو إلى صخرة كانت خارجة عن الجدار بما لا يقل عن عشرون سنتيمتراً.

" إنها فقط ممسك للتنظيف، ومن أجل صور حجرية التي تغطي الأهرام، بحيث أنها كانت تبدو وكأنها قطعة من الجدار الخارجي ".

ثم قاد بيدرو صديقه البرتو إلى بقايا جدار كان أمام الهرم مباشرة، وهنا كانت لوحة من الحجارة على الجدار، تطلع البرتو إلى المنظر الذي كان أمامه، نمور ونسور.

" أليست هذه رموز للشمس، كما عند الأزتيك ..؟".

" وهنا أيضاً رموز للمحاربين التولتيكيين، إذ أن المحاربين كانت لهم الحياة وقيام الشمس مما يقلقون لأجله، ذلك فهم يقاتلون ويجلبون الأسرى الذين هم بحاجة للتضحية بهم، إذن فالمحاربون كانوا هم الأهم بين البشر في الدولة، وبدون عملهم المهم، هكذا يعتقد الشيوخ، فإن الشمس لا تشرق، لذلك كان يحق لهم أن يحملوا رمز الشمس أو أن يرتدون ثياباً تقليداً للنمر أو البوما Puma .

" إنه اعتقاد مثمر ..! " قال البرتو " وعن ذلك فقد سمعت من الخال بيبا، أ، كويتسالكوتل، كان إله للجثث، نقطة الوسط في ديانة مسالمة ".

أصيب البرتو بخيبة أمل، ولكن بيدرو كان يهون عليه. " الخال بيبا كان على محقاً مع آلهة الضوء، إذ أن الأزتيك الذين كانوا 200 بعد فترة حكم كويتسالكويتل، توبيلجينس Topilgins قد سكنوا في الأراضي المرتفعة، سمعوا في الأساطير عن آلهة نجمة الصبح وعن الملك الكاهن، وهم كانوا يعتقدون أن كلاً من الكيانين هما كيان واحد ، وأنه آلهة نجمة الصبح المسالم، وإنه الوحيد على الأرض، وبمنع تقديم البشر كتضحية للآلهة، ربما كان الأزتيك يبحثون في قلوبهم عن إله سلمي، وأن يكون قوياً كآلهتهم، الذي يجعل البشر ملتزمين بالتضحية للبشر. ولكن من الثابت اليوم، بأن التولتيك أيضاً قاموا بالتضحية بالبشر للشمس ".

" وكيف يمكن أن يعلم المرء هذه بدقة ..؟ ".

" إن هذه هي أعمال أركيولوجية (آثارية) قد تم إقرارها بصورة دقيقة قبل بضع سنوات، والتي تم فيها اكتشاف مدينة تولا وإخراجها من تحت الأرض، مدينة تولا التي يرد ذكرها في بعض التقارير الأزتيكية بأسم تولان Tollan وحتى عام 1942 كان يعتقد أن تاريخ تولان إنما هو أسطورة ازتيكية، إذ تقول الرواية هنا، بأن كويتسالكوتل قد نزح مع محاربيه من تولان ذهبوا إلى سواحل الخليج، وركبوا الزوارق واختفوا شرقاً في البحر، والآن تصور الأمر بنفسك، فاليوم يعرف المر كل شيئ، وقد جرى في الواقع كما يلي: التولتيكيون وبعد سفرة بحرية طويلة، رست زوارقهم في شبه جزيرة يوكاتان Yucatan ثم أنهم احتلوا المدينة المقدسة جيجن أيتزا ChichenItza وقد شيد كويتسالكواتل هناك مقراً أجمل وأكبر من سابقاتها ".

" وكيف نستطيع أن نعرف بأن التولتيك قد جاؤا فعلاً إلى يوكاتان، وإلى مدينة جيجن إيتزا؟ ".

" لأن التنقيبات الآثارية، التي جرت في جيجن إيتزا، وهذه الخرائب والأطلال قد اكتشفت قبل أكثر من 100 سنة، ولكن الآثار يون أمعنوا في التفكير حتى اكتشاف تولا، من وضع هذه الصور وإلى من تعود، التي كانت مختلفة عن كل ما عرف من هذه الأنحاء التي كانت مسكونة من قبل المايا Maya حيث كانت الصور الحجرية ذات النمور والنسور، صور محاربين، أهرام ضخمة، وموقع لمراقبة النجوم ومعبد، وآلاف التماثيل الفخارية على الجدار الخارجي، كان هناك أفاعي ذات ريش، وحمالات لوعاء التضحية التي تسمى جاكمولي Chacmoole والتي رأيت منها قبل قليل ".

وكان كلا الصديقان يسيران ببطء حول هرم آلهة نجمة الصبح، وحول جدار واطئ الذي يفصل عن ساحة معبدة بالإسفلت، وهنا يقع البصر أولاً على تمثال نصفي لرجل يشير بيده فوق بطن الوعاء. أقترب البرتو وتحسس بيديه الحجر الخشن وقال :

" إنه يبدو غريباً، كيف أن هذا الرجل يلتفت لينظر إلى اليسار .. وقد وجد فعلاً وعاء تضحيات كهذا في جيجن إيتزا، أنقول نمور ونسور وأفاعي ..؟ ".

هز بيدرو رأسه موافقاً وقال: " ليس قبل أن يتم اكتشاف تولا وإيجاد هذه الصور الجدارية الحجرية، التي لها ذات الأسلوب الفني، آنذاك عرفنا بأن البشر الذين كانوا قد استوطنوا جيجن إيتزا، كانت تولا هي مقر إقامتهم السابقة. والكاهن والملك كويتسالكواتل ـ الأفعى ذات الريش، وفي جيجن إيتزا مانت صور القتال التي تخبرنا عن احتلال التولتكين للمدينة، وإن المعبد الوحشي مع ألاف من جماجم القتلى هي واحدة من الأسس التي قام عليه هذا المعبد وقد عرضت رءوس الضحايا بشكل يمكن مشاهدته، وهذا المعبد لوحده يثبت إلى جانب لقى آثارية تثبت أن التولتيك على عكس أسطورة الأزتيك تماماً، أنهم يمارسون التضحية بالبشر،

وكويتسالكوتل والأفعى ذات الريش يعيش في مناطق مايا المحتلة تحت اسم كوجلكان kuchlcan ، إذ أن هذه الكلمة تعني أيضاً الأفعى ذات الريش ".

" هذا فق الواقع بديع، أن يتمكن التولتيك قيادة حملة غزو واحتلال، ترى كم تقدر المسافة من هنا إلى بوكاتان ..؟ "

" 2000 كيلومتر " صفر البرتو من خلال أسنانه، " أي أبعد من المسافة من أسبانيا إلى برلين في ألمانيا ..! ".

10 : سفرة إلى أواكساكا

أمضى كلا الشابين ليلتهما في تولا، والآن ها هي سيارة الجيب تمرق في الصباح الباكر على الطريق المؤدية إلى الجنوب.

" اليوم " قال بيدرو " بإمكانك أن تتمعن بمشاهدة هذه النواحي مرة أخرى، واستمتع بالرحلة الجبلية على الطريق الإسفلتي المعبد، وعندما نغادر مدينة تولا ونصبح في الجبال، سوف تبدأ آنذاك مرحلة جديدة، خذ الخريطة من درج السيارة وبإمكانك أن تتعرف على المسافة جيداً ".

فتح البرتو درج السيارة وأخرج الخارطة، وسقط شيئ من بينها إلى ما بين قدميه، فأنحني البرتو وأمسك بمسدس، وبحذر أعاده إلى درج السيارة قائلاً: " ما كنت أظن أنك بحاجة إلى شيئ كهذا بيدرو ..! ".

" أنها فقط لحالة ما نتعرض في منطقة ما إلى حادث سيارة، حيث توجد حيوانات كثيرة هنا، ولكني لم أستخدمه إلى الآن أبداً، ولكن من يمضي بسيارته في هذه الأنحاء فإنه لا بد أن يقتني بالإضافة إلى خزان بنزين احتياطي، وآخر للماء، مسدساً كهذا، فهناك بعض الناس يكمنون في الليل والضباب في أماكن نائية التي يقف فيها أصحاب السيارات لينهبوا محافظ نقودهم، وإذا أطلق المرء عليهم بضعة طلقات من مسدس فإنهم سيولون الأدبار ".

" وقد رأى البرتو في ذلك، أن الريف هو عبارة من ميدان صراع أبدي، وقد تخيل بأنه في صحراء من الجبال بين أشجار الصبير العملاقة ذات الأثمار المدلاة كالمصابيح، جالساً بالقرب من السيارة على ضوء نيران أوقدوها بالقرب، وبيده مسدس يقوم بالحراسة بينما ذهب بيدرو لطلب المساعدة.

وفوق قمة بركان خامد شاهق، شاهد بعض الأشكال التي كانت تتحرك، ولكنهم لم يكونوا من رجال العصابات، وإنما قطيع صغير من الماعز الجبلي، وهو يعود حتماً لكوخ في الجوار. وبدأ البرتو يحلم بالمغامرات، وهو بإمكانه أن يوفر على نفسه الأحلام، إذ أن المغامرة الكبرى في حياته الشابة كانت في انتظاره.

في الساعة السادسة والنصف بالضبط، بدأ غروب الشمس، ومع آخر ضياء للنهار، وصلا إلى عاصمة دولة اواكساكا Oaxaca وعندما كانا في مخارج المدينة، أشار بيدرو إلى اليمين حيث الجبل الذي غطست الشمس واختفت خلفه، ويلاحظ المرء على القمة المستديرة وجود آثار وخرائب لهرم، ولكن بيدرو قال: " هناك في الأعلى قمة مونت البان Mont Alban تقع المدينة المقدسة للزابوتيك، وسف نقوم بزيارته غداً في الصباح الباكر، وما علينا الآن سوى التفكير بوجبة عشاء محترمة ".

والبواب العجوز في فندق روبز ، حيا بود بيدرو كما يحي المرء صديقاً قديماً وقال " هل من جديد في العاصمة يا سيد ديل آمو ؟، هل ما زالوا يشيدون هناك تلك البنايات العالية المجنونة ؟ .. أوه بالنسبة لي، فإن مدينتنا واكساكا ببيوتها وبناياتها اللطيفة المريحة أفضل من جميع ناطحات السحاب، ألا تجدها أنت أيضاً كذلك ؟ والهواء هنا صحي ونقي أيضاً، نحن لدينا مصحة حقيقية أليس كذلك يا سيد ديل آمو..؟ ".

وربت بيدرو على أكتاف الرجل العجوز قائلاً : " مؤكد أنك على حق، ولكن أعطنا الآن غرفة حتى نهيأ أنفسنا لتناول الطعام ".

" على الرحب والسعة سيد بيدرو، إليك أفضل ما عندنا "، ثم تناول مفتاحاً من الرف ووضعه بيد بيدرو قائلاً: " لا ينام في هذا الصالون سوى السيد الرئيس نفسه، والبارحة كان عندنا هنا سيد لطيف من نيويورك ".

" شكراً لك يا عزيزي، شكراً ". وغمز بيدرو بإشارة إلى البرتو، وحملا حقائبهما ثم صعدا إلى الطابق الأول.

" هذا الرجل العجوز هو إنسان طيب، ولكن إذا لم نذهب، فسوف يبقى يتحدث حتى صباح الغد " .

وكانت الغرفة منتظمة، ومطلة على الشارع، وعندما فتح بيدرو النافذة، تسلل إلى أذنه صوت ألات موسيقية غريبة، تلك التي لم يسمعها البرتو من قبل، فانحنى يتطلع باهتمام من الشباك. كان الفندق يقع مباشرة بجانب مركز المدينة سوكالو، وهي ساحة كبيرة مربعة الشكل حيث توجد أشجار معمرة رائعة.

ومن سرادق الموسيقى في وسط الملحق، كانت تصدح الأنغام، ويشاهد البرتو الآن خمسة عازفين وبأيديهم مطارق قوية يقرعون بها على منضدة طويلة، والفرقة الموسيقية تمارس هذا العزف يومياً تقريباً من أجل تسلية الجمهور الذي يتجمعون جالسين على المصاطب في الجوار ويرتاحون من عناء يوم عمل، يستمعون إلى أنعام الموسيقى.

كانت تلك صورة مسالمة ود البرتو لو أنه ينزل فوراً إلى الأسفل من أجل الاستمتاع بكل ذلك. وليشاهد آلة العزف ماريمبافون التي تشبه أكسيلوفون. وإنه سوف لن يدع الفرصة تمر، وهاو يتناول طعامه ويتحدث في سره أنه يستحق ذلك بعد عناء سفر 200 كيلومتر.

وتناول كلا الشابين طعامهما بكل ارتياح، ثم كانت هناك وجبه شهية للاستماع أيضاً، حيث كان اثنان من الهنود يعزفان على الكيتار ألحانا حزينة، وكان الرجلان يبدوان ساهمين أثناء العزف عما حولهما، ولم يلاحظ ألبرتو إلا فيما بعد أن الرجلين ضريرين. وجاء بعد ذلك أحد النساجين (حائك) وأشار بيدرو إلى أثنين من الهنود اللذين كانا يضعان أكياساً كبيرة على الظهر وجلسا أمام المناضد وفرشا بضاعتهما من الأغطية والعباءات. وبين الحين والآخر يعتقد أحد الهنود بأنه قد أتي على عمل مهم، فيتقدم بوجه ودي باسم، بإشارات يسألهم فيها فيما إذا يسمح له بدخول المنضدة.

سيدة أمريكية أعجبتها عباءة زرقاء، تتوسطها شمس حمراء، وبعد مساومات طويلة اشترتها، ومضى الهنود بعد أن عرضوا كافة قطعهم بدون أن يجدوا زبوناً، انسحبوا بهدوء كما جاؤا.

" ها أنت قد شاهدت أشغالهم اليدوية البرتو، والرجال يأتون غالباً من الجبال البعيدة من أجل عرض شيئ أستغرق عمله شهراً كاملاً، بل وكما سمعت بنفسك، فإنهم يتحدثون بضع كلمات باللغة الإنكليزية فيما لا تستطيع نساؤهم وبناتهم الحديث حتى باللغة الأسبانية..! وفي القرية التي أعمل بها، فالأمر مختلف، هناك يتحدثون الأسبانية، وإلا فلماذا أنا أدرس هناك ..! ".(*)

وإلى هنا كان التعب قد أصاب كلاهما، وأخذ البرتو يتثاءب بصوت مرتفع، فضحك بيدرو قائلاً: " إنني أعتقد يا سيد البرتو بإننا يجب أن نرجئ الجولة في المدينة، فلدينا يوم الغد بعد، وهو سيكون يوم متعب أيضاً ".

هز البرتو رأسه بدون أن يجيب، وعندما وصل إلى فراشه سقط فيه كما يسقط الكيس.

(*) هذه معلومة مهمة، وجود من لا يتحدث الأسبانية حتى بعد مرور أكثر من خمسة قرون على الاحتلال الاستعماري الأسباني للمكسيك. المترجم

11 : على جبل مونت ألبان المقدس

كانت السفرة من أوكساكا صعوداً إلى جبل البان Mont Alban لم تستغرق أكثر من ربع ساعة، ويشعر المرء فوق القمة التي ترتفع فوق المدينة 400 متراً، وكأنه في عالم آخر. وليس عبثاً أن يختار الهنود قبل 2000 هذا المكان موقعاً لإقامة معبد التضحيات.

وفي الطقس الحسن هنا، على ارتفاع 2000 متر فوق سطح البحر، لا تشبع العين من رؤية سلسلة الجبال والمناظر المحيطة به. وتتراوح ألوان البرية من الأخضر في وديان اواكساكا إلى اللون البني في التلال، إلا الأزرق الخفيف في الجبال البعيدة. وبوسع المرء أن يتخيل، أن كهنة الزابوتيكيين كانوا يريدون أن يتقربوا إلى آلهة السماء، ولذلك قاموا بتشييد المعبد في هذا الموضع، كما توفر رؤية صافية للجو أمكانية جيدة لتفقد النجوم ومراقبتها.

أوقف بيدرو السيارة تحت ظل شجرة في مدخل معبد رئيسي علة ظهر قمة جرى تسطيحها لغرض إقامة المعبد عليه، وقد أقام الزابوتيك ساحة مستطيلة الشكل بطول 500 متر وعرض 300 متر لتأسيس المعبد المقدس. وإلى اليمين يقع على جانب ضيق من الساحة في الشمال، درج عريض مكشوف، صعد كلا الشابين ببطء مع التطلع بإمعان إلى قمة الهرم المسطحة، ومن هذا المكان المرتفع، بوسع المرء أن يشاهد بوضوح أشكال متعددة من الآثار. ثم تسلق بيدرو على درجات أحدى الأعمدة الغليضة، ونادى البرتو ملفتاً انتباهه إلى شيئ محدد " البناية الأولى إلى اليسار مباشرة، يبدو شيئ في أساسها كالحرف اللاتيني H فهذه هي ساحة للعب الكرة ".

" هل كان الهنود يعرفون أيضاً اللعب بالكرة ..؟ ". سأل البرتو.

" بل أنهم كانوا قد اخترعوا الكرة المطاطية، وأنهم وضعوا قواعد وأصول اللعب الكرة ما زالت متبعة حتى اليوم. وكان اللعب عند الهنود القدماء يدور فيما يقف كاهن في كل ركن من أركان الملعب، والكرة كانت مطاطية بصفة تامة، ويجب أن تقذف بقوة، ومن غير المسموح لمسها إلا باليد. وحسب تعليمات اللعب، يحاول اللاعبون أن يقذفوا بالكرة المطاطية في أحدى زوايا ملعب الخصم، وكان هناك أيضاً ساحات حيث وضعت فيها حلقة حجرية التي ينبغي أن تمرق الكرة من خلالها. وقبل كل شيئ، كان المايا في الجنوب والتولتيك في الشمال يلعبون بحسب هذه القواعد، هل بإمكانك الآن أن تتصور أي لعبة حديثة جرى استنباطها في ملعب الكرة الهندي المقدس ".

وبدا التفكير على البرتو ثم قال " ربما كرة السلة، إذ أن الكرة يجب أن تقذف وأن تمرر خلال حلقة ".

" ذلك بالضبط ..! وهي اليوم أحب لعبة لدى الهنود، وفي بعض أرجاء المكسيك يحتفظون بلعبة كرة تشبه اللعبة القديمة " تاستي " وفيها تلعب الكرة بالقدم وليس باليد ".

" أتسمى هذه اللعبة مقدسة ..؟ إن لعبة الكرة إنما هي شيئ يشبه تماماً ... كيف أصف لك الأمر ..! إنها شيئ للتسلية، كيف يمكن أن تكون اللعبة مقدسة ..؟ ".

" بالنسبة لنا، فإن اللعبة بالكرة هي رياضة، وبالنسبة إلى كهنة الهنود القدماء كانت لعبة تنبؤ وتكهن، وكانت الكرة المستديرة المصبوغة بالأبيض تماماً كشكل الشمس، أو القمر، أو أي كوكب، أترى هناك في مدخل ملعب للكرة الكثير من الصفائح البيضاء في صف واحد، إنها رسوم رمزية للكواكب وإلى الكرة في آن واحد، والنهود كانوا يتصورون بأن الكهنة يحاكون لعب الآلهة مع الكرات السماوية عندما يحركون الكرة في الهواء، ربما أنهم كانوا يريدون من خلال نتيجة اللعب استنتاج مجرى الكواكب المستقبلي، وكان شيئ كان يدور في إطار من الجد والاحتفال. وليس نادراً ما كان يرافق ذلك التضحية بالبشر ".

" بيدرو، عندما أشاهد هنا كل هذا، فأني أسأل نفسي، لماذا شيدوا ساحة المعبد فوق قمة الجبل، هل كان المطلوب أن يكون قريباً من آلهة النجوم، أو أن يشعر المرء هنا في الأعالي بالأمان من الأعداء ..؟ هل كان هنا بيوت يسكنها الزابوتيك ..؟ ".

" جميع الأبنية هي مشيدة على شرف الآلهة، وكان مكاناً يحجون إليه، وعدا الآلهة، كان الكهنة والموتى لهم إقامة هنا، وهي لم تكن أبداً أبنية احتفالات، والدليل على ذلك بأنه لم تدفن هنا أي قطعة سلاح، ربما في ذلك الوقت المبكر لم يكن هناك حروب، والبشر كانوا يعيشون في حالة من السلم الدائم في خدمة الآلهة، ولابد أنه كان مكاناً مقدساً جداً، وإلا لما كانت طوال 2000 سنة مقدسة، وكذلك فإن كل الشعوب التي قطنت هذه البلاد، قدمت في هذا المكان التضحيات وشيدت المعبد ".

وقام الشابان بجولة في غضون ساعة حول المعبد والأبنية المحيطة به ثم باشرا بالهبوط من خلال الدرج العريض المكشوف، ونسلق البرتو هذه المرة على درج أعمدة جدار فيما جلس بيدرو على الدرج العريض.

" والآن، ما لذي أعجبك هنا بشكل خاص ..؟ القسم القديم الذي يضم صور الكهنة الراقصين، أو مكان مراقبة النجوم، أو الألواح الكتابية، أو ملعب الكرة ..؟".

" إنه من الصعب القول أي منها ترك الانطباع الأقوى لدي، والواقع أن هنا أعمال تعود لألفي عام تصطف قرب بعضها، وشيئ كهذا يوجد فقط في روما وأثينا، ولكن كل شيئ هنا متوافق مع بعضه، ويبدو من الثابت بأن جميعها من صنع معماري واحد ".

" وإنك لتجد في المعاينة القريبة والدقيقة خلافات صغيرة، وبالمقارنة مع القطع الصخرية المسطحة، ثم بقايا الصور عن الرقص من القرن الخامس قبل الميلاد، والمعبد الذي شيد بمهارة في القرن الحادي عشر بعد الميلاد ..! هنا أجساد تتحرك بالرقص ذات رؤوس كبيرة ولحى طويلة فوق صخور غير متشابهة أو متماثلة، هناك حيث أعمال على الحجر التي اتخذت كواجهات (جداريات)و التي تقاس دقتها بالمليمترات ".

" في الواقع هذا صحيح، إن الهيروغليفية على الأحجار التي تضم الرجال الراقصين، هي أقدم الكتابات في المكسيك، ولكن الخال روى له مرة، بأن أقدم رزنامة(تقويم) التي وجدت على صورة حجرية للأولميك كانت في عام 31 بعد ميلاد المسيح، وأني أعتقد بأن الأولميك هم أقدم شعب حضاري، إذا كانت لوحة الراقصين تعود إلى القرن الخامس قبل الميلاد دقيقة، فإن ذلك لن يكون صحيحاً ".

" لا بد لي أن أشيد بك يا البرتو، فإنك تتابع بدقة، لوحة الراقصين يحتمل أن تكون من أعمال الأولميك، وفي عام 250 بعد الميلاد جاء الزابوتيك إلى مونت البان، وظلوا هنا أكثر من 1000 عام، ثم احتلوا مناطق جيرانهم، ثم الجبل المقدس ".

" والآن أين هو أقدم بناء للزتبوتيك على مونت البان ".

" موقع مراقبة النجوم، المعبد الغريب الذي يقع تقريباً في النهاية الأخرى من الساحة، حيث ينحرف في البناء وله أساس مثلث بارز، إنني أقول لك عن جولتنا التي تضم زوايا معينة انعكست في البناء، ولربما أن النجوم راقبت، ومن المثير أن الزابوتيك Zapotek كانوا البادئين بمراقبة النجوم، ومن فوق هذا الجبل ..! والآن علينا مشاهدة القبور أيضاً التي تقع على جانب الجبل، ولكن الوقت ... الوقت ".

بدأ الآثاري (الأركيولوجي) المكسيكي الشهير الفونسو كاسو Alfonso Caso في عام 1931 في أعمال الحفريات على جبل مونت البان، وقد بحث الأساتذة والمختصون عن القبور أيضاً. وفي الواقع كانت هذه القبور غاطسة في الأرض في حفر من عمل الإنسان، وكما أن الشمس تنبثق من باطن الأرض في مجرى حركتها اليومية، وهكذا كان الإنسان أيضاً مشابهاً لذلك في مسيرة حياته.

والزابوتيك كانوا يتصورون بأن البشر الأوائل قد قدموا من حفر في الأرض، ومن الممكن أن يكون في هذا التصور عودة وتمسك بالذكرى إلى العصور القديمة التي كان البشر يعيشون فيها في الكهوف حقاً، وكانوا يبنون لموتاهم حفر (كهوف) يضعون فيها موجوداتهم، لأنهم كانوا يعتقدون بالذين ماتوا يستطيعون مرافقة الشياء المادية لموتى، وعندما جاء الميكستيك استلموا قبور الزابوتيك، ونظفوا القبور مما كان بها من موجودات ووضعوها جانباً، وجعلوا بدلاً عنهم أمرائهم وكهنتهم الكبار.

والفونسو كاسو وجد في بدء أعماله أن أكثر من القبور قد سرقت، سرقت من قبل منتهكي حرمة القبور ومن الباحثين عن الكنوز المطمورة، ولكن كان هناك 150 من القبور الغير مكتشفة والتي لم يمسها أحد، وكانت تضم صور جدارية، حلي، ومصوغات من الذهب واليادا والفيروز، وأشياء أخرى كان بعضها قد تلف.

والاكتشاف الأهم، كان النجاح فيها من نصيب الأثاريين الذين فتحوا في كانون الثاني - يناير / 1932 عندما فتحوا القبر رقم 7، وهو الذي أشتهر اليوم بأنه كان يضم أكبر كنز للذهب والذي أدى إلى عقد مؤتمر للآثار يين والمنقبين في كافة أرجاء أميركا. وفاق حتى في فرنسا في إثارته اكتشاف قبر توت عنخ آمون في وادي النيل قبل عشرة سنوات من ذلك ".

" نعم، لقد قرأت عن ذلك، توت عنخ آمون الملك المصري الشاب الذي يتكون تابوته من سبع طبقات، إنني أعتقد أن التغليف الداخلي كان من الذهب، ترى هل كان الميكستيك هنا يعرفون أيضاً المومياء ..؟ ".

" كلا، ولكنهم كانوا يدفنون موتاهم مرتين، إذ عندما تتعفن الجثة، يقومون بإعادة ترتيب العظام، ثم تصبغ بلون الدم ثم ترقد في مساحة صغيرة، وبعد أن ينتهون من دفن الجسد، يغلق القبر بصورة نهائية. وكان ذلك في الواقع مناسبة احتفالية باستخدام تابوت فني جميل توضح فيه العظام، وإلة جانب الأمراء الموتي في القبر رقم 7، وجدوا أكثر من 600 من القطع الأثرية

التي تدل في فخامتها على مهارة الصناع الفنيين من الميكستيك، وكان من بينها قطع ذهبية وفضية، وكذلك أقنعة موزائيك من أحجار شبه كريمة وكريستال جبلي وعيدان مصنوعة من العظام ".

" ألا نستطيع الذهاب إلى القبور لمشاهدة الكنوز ..؟ ".

" إن حظنا في ذلك ضئيل، إذ أن القطع الفنية هي خلف زجاج مصفح في متحف أواكساكا، ونحن لدينا بالكاد ساعة واحدة لتذهب إلى هناك لإلقاء نظرة على الكنوز في المتحف ".

وخلال التجول في أزقة المدينة لا يستطيع المرء اليوم (يوم السوق) إلا أن يسير بسرعة الخطوة، فالأكتضاض على أشده هناك: المشترين والبائعين والتجار. وماذا يوجد غير معروض هناك ..؟

كان على البرتو أن يتذكر جملة قالها الخال بيبا، عن تقارير الأسبان حول الأسواق القديمة في تينوشتيتلان، ولربما كان قد شاهد سابقاً مثل هذا المنظر. وقبل انطلاقهم بالسفرة، ألقى نظرة على السلع المعروضة، فقد كان مهتماً قبل كل شيئ بالمصنوعات اليدوية. وعندما مروا في سوق الذرة، أشار بيدرو إلى طاحونة حجرية للذرة، والتي كانت معروضة في صفوف طويلة للبيع، وهي ما تزال تصنع اليوم بنفس الشكل الذي كانت تصنع فيه قبل 2000 سنة.

وكان زقاق آخر محتشد بالذين يبيعون الفخاريات، والفخار الأسود هو من اختصاص واكساكا، والملفت للنظر هي الأشكال المتشابهة للجرار والأباريق والقدور والأواني. وفي ذلك يستخدم الهنود حتى اليوم صينية دوارة، ويصنعون كل الأشكال باليد. ثم كان هناك ركن في السوق يختص بيع الأعمال المصنوعة من القش، سلال، و ما شابه ذلك. كما كانت هناك المنسوجات، وبالطبع الحبال من القنب، وشباك صيد الأسماك، وأنواع الحصير من القش.

وعندما وصلا إلى مكان يعمل فيه رجل بيده على حدَ السكاكين، قاوم البرتو رغبة جامحة لشراء خنجر جميل، وفي مكان آخر، كانت النسوة يجلسن على الأرض وحولهن منتجات شتى من البلاد، فقهناك الموز من كافة الأحجام، والطماطة، وكان هناك جبن ايتلا الطري، وهو إنتاج تشتهر به هذا المحافظة، وكان هناك أيضاً نساء يبعن الجير غير المحروق مخلوطاً بأقراص الذرة.

ولم تنته منطقة السوق إلا إلى ساحة سوكالو مباشرة. استدار بيدرو حول الساحة ثم مال إلى الكتدرائية يميناً، وتوقف أمام بناية قديمة من العهد الأسباني وتركا السيارة هناك، ثم أخذا يعاينان البناية، التي كانت بناية المتحف.

" والآن، كان الشابين يقفان أمام صالة كبيرة مصبوغة باللون الأبيض، وعلى الجدران أعداد لا حصر لها من الدواليب الزجاجية، وهنا توجد أثمن الكنوز الآثارية في العالم، وكان أول ما وقع عليه نظر البرتو هو (طوق للجبين) مع ريشة ذهبية كبيرة.

" هذه القطعة هي من نوادر المكسيك " قال بيدرو " وهناك ما يشبه هذه في منطقة أندين Anden في جنوب امريكا فقط. ولربما كان للميكستيك علاقات تجارية مع مناطق عديدة، ولربما أنهم كانوا يشترون من هناك ما يحتاجونه من أشياء مصنوعة من النحاس. ومن المؤكد

أن التجار القدماء كانوا يسافرون أيضا بواسطة السفن، بل أن كولومبوس قد تقابل في البحر الكاريبي مع سفن كانو هندية تجارية ".

وفي دولاب زجاجي بالقرب من حليه الرأس، كانت هناك قطعة موزائيك تغطي جمجمة. " هذه القطعة الفخمة، هي القناع الوحيد المصنوع من الفيروز، وهي بحالة نصف جيدة، وأحجار الفيروز ملصقة بقوة بواسطة صمغ على الخشب أو على العظام، وعندما فتحت القبور، كانت قطع الفيروز الموزائيكية قد تساقطت منذ فترة طويلة، إذ أن الصمغ كان قد فقد فاعليته مع تقادم الزمن ".

" هناك أيضاً سلاسل وعقود من المرجان واللؤلؤ، وهذا يثبت، بأن الميكستيك كان لهم ما يفعلونه في البحر ..! " هكذا علق البرتو، وسحب بيد بيدرو إلى معرض آخر في القاعة.

وإلى جانب العقود والسلاسل، كانت هناك أعمال فنية من العظام، وكذلك صور وزخارف وهيروغليفيات. (*)
(الكتابة الهيروغليفية تعني الكتابة المقدسة، وهي تطلق على كل كتابة بالرسوم، وتطلق على كتابات حضارة وادي النيل أساساً، ولكنها تطلق أيضاً على حضارات المكسيك. المترجم)

" لقد صنعوا هذه العيدان الجميلة من عظام النمر " قال بيدرو.

كان البرتو على عجلة من أمره، وهو في الواقع لم يكن يدري ماذا يفعل أما كل هذه النفائس، وأي منها يشاهد أولاً، وها هو الآن يقف أمام حلية ذهبية تعلق على الصدر ورسم نادر لأحد الآلهة.

" هذا هو آلهة العالم السفلي، وهو يضع حلية مخرمة جميلة الصنع على رأسه، والرسامان الهيروغليفيان على حلية الصدر كتمن تشير إلى عام 1465 أو 1517، وإنك لتشاهد هنا أيضاً الهيوغليفية: هذا الرسم هو للعبة الكرة، لاحظ، الرمزان للاعبين يمثلان آلهتين، والشريحة الدائرية تحت الرسم الهيروغليفي هو رسم يمثل الشمس، والصفائح السفلى تحمل رمز الأرض والشمس، وهذا الذنب المتحرك الذي يأخذ شكل القطرة هي أجراس صغيرة. ربما أننا أمام حلية تعود لأحد اللاعبين ..؟".

كان البرتو يتطلع إلى كل شيئ بدقة.

" لقد نسيت أن اسأل، بأي أدوات كان الهنود يعملون، فهم لم يكونوا بعد يعرفون الحديد، أما النحاس، فقد عرفوه لاحقاً من هنود جنوب أمريكا ".

" نعم، بصعوبة يصدق المرء ذلك، بأن دقتهم وإتقانهم هذا أنتج معدات بناء، وهذه الحلى الرائعة بأدوات حجرية. أنظر إلى هذا الصحن المصنوع من الكريستال الجبلي النقي، وأيضاً هذا الحجر الشبه كريم الذي لابد وأنه قد بذل فيه مجهود، وأنه لحقاً تستحق منجزات القدماء منا الإعجاب عندما نعلم بأن أدوات العمل كانت حجرية فقط من الخشب والعظام، إلا أن الوقت لديهم كان أكثر مما لدينا اليوم، كما لم يكن مهماً أن يتم إنجاز صحن كهذا خلال سنة كاملة ".

تطلع بيدرو إلى ساعته وقال" إن الساعة تجاوزت الآن الثانية عشر، وإذا لم نذهب حالاً، ونشرع بالسفر، فإننا سوف لن نصل قبل حلول الظلام إلى سان جوزيه ".

12 : سفرة إلى الجبال

أطلقت السيارة خلفها عاصفة من الغبار، لقد مضى وقت طويل لم تهطل فيه الأمطار، وهكذا فإن السيارة كانت تسير فقط على أرض جافة ورمال ناشفة، وكانا قد تجاوزا منذ وقت طويل المقطع الصغير المعبد من الطريق، إذ كان عليهما الخروج من الطريق السريع المتجه إلى الجنوب والتوجه نحو الجبال وذلك بعد خمسة كيلومترات فقط من مغادرتهم أواكساكا. وعندما انتهت المنطقة المستوية، كان أمامهم واد ضيق. تطلع البرتو إلى الأعلى فوقه وشاهد شريط ضيق من الطريق، فقد كان يبدو في البعيد مقاطع فوق ظهر الجبل وينتهي مرتفع كبير إلى غابة صنوبر، وحتى وصلا إلى هذا الموقع، كانت السفرة قد استغرقت نصف ساعة.

" هذا غريب، ففي أوربا تكف الغابات عن الانتشار على ارتفاع 2000 متر، وفي المكسيك فإنها تبدأ من هذا الارتفاع فصاعداً ".

" إذا كنت تقصد غابة الصنوبر، فهذا صحيح، إنها سترافقنا حتى المضيق ".

وأستمر الطريق بالتسلق، وفوق المضيق هبت رياح باردة قوية، وقد أصبحا الآن على ارتفاع 3000 متر، وقام بيدرو بإطفاء المحرك، وإيقاف السيارة، ليتمتعا بإلقاء نظرة إلى الخلف، إلى وادي أوكساكا.

بعد المضيق، مضى الطريق لفترة طويلة على مستوى واحد من الارتفاع، وانتهت كذلك قطع الغابات، وأصبح المنظر ممتداً صافياً حتى الأفق، حيث السلسلة الجبلية حيث كان أمامهم جرفاً صخرياً وقمة ناعمة مستديرة ذات مساحة خضراء غامقة. وبعد برهة بدأت السيارة بالنزول، وبدأ الطريق يتلوى كالثعبان على امتداد جدار صخري، وكان لدى البرتو شعور غير مريح بأن الإطار الأيسر معلق فوق هاوية، ثم خاضا بسيارتهما جدولاً صاخباً، وبدأ الطريق بالصعود من جديد مباشرة بعد استدارة إلى جسر معلق الذي بدا عليه وكأنه قابل للانهيار، واجتيازه صعب إلا على من يقود السيارة لا يعرف دوار الرأس، إذ كانت دعامتان خشبيتان فقط تبعدان متر واحد عن بعضهما، وكانتا تفضيان إلى الجانب الآخر. وتكفي غلطة بسيطة وميلان قليل في مقود السيارة لتتحول إلى طائرة تطير في الجو.

كان بيدرو قد أعتاد على مثل هذه الجسور، ولكن البرتو لم يستعد ارتياحه إلا عندما أصبحت دواليب السيارة على الأرض مرة أخرى على الجانب الآخر.، وتطلع إلى عداد السيارة ووجد أنهما قد سارا 600 كلم، وقد أستغرق هذا التأرجح أكثر من 4 ساعات، وما زال يتوجب على البرتو أن يلتصق بكرسيه في السيارة. وأخيراً وبعد ساعة أخرى من السفر وصعود آخر حتى لاح هدفهما أمام العين، وقد أصبحت مدينة سان جوزيه أمامهما.

وكان سكان القرية البالغ عددهم 300 نسمة يسكنون في أكواخ مصنوعة من الآجر المجفف في الشمس، والبيت الحجري الوحيد كان يبعد بعض الشيئ عن المساكن الأخرى، وهو بيت ذو طابق واحد وله شرفة، كانت ببناية المدرسة.

بناء جميل، هذا ما قدرة البرتو، يحيط به حديقة جميلة، وعندما مالت السيارة ووقف بالقرب من البوابة، قابلهم وجه مدور لفتاة زابوتيكية، ربما كان عمرها يناهز الخامسة عشر، ابتسمت بود وظلت واقفة بالقرب من السيارة وحييت بيدرو بدون تحفظ.

" هل هناك شيئ جديد يا نينا ..؟".

" في الواقع لا، السيد العجوز جاء مرة أخرى، وأنت تعرفه، إنه القادم من الجبال، كان يريد أن يحادثك وسيأتي غداً صباحاً مرة أخرى، هو قال ذلك ".

" ماذا يريد مني ..؟ هل وجد في أرضه الزراعية كنزاً ..؟ ".

" إنه يفعل ذلك بسرية كبيرة، ولا يفتح فمه أبداً ".

" سيأتي مرة أخرى، إذا كان الأمر مهماً لهذه الدرجة. نينا أقدم لك البرتو، إنه قادم من أسبانيا، هل تعرفين أين تقع أسبانيا ..؟ أظهري لنا ما قد تعلمتيه ..! ".

" من وراء المحيط يا سيد، وكانت المكسيك يوماً تابعة لها إلى أن تحررنا منهم ".

" برافو نينا، أتلاحظ البرتو إن دروسي لم تكن عبثاً ..! والآن قولي نينا هل طبخت لنا شيئاً جيداً ..؟ ".

هزت نينا برأسها أن نعم.

" إذن ضعي سريراً في الغرفة الصغيرة للسيد الشاب .! ".

ذهبت نينا غير مستعجلة وسبقت الرجلين إلى البيت.

" في هذا الجزء من بناية المدرسة (البيت) هي شقتي الصغيرة ".

وأكمل بيدرو حديثه بإشارة من ذراعه وأستطرد " إن الجزء الأعظم منها هي غرف للدراسة، وإذا لم يكن الطقس بارداً، يجلس الأطفال هنا في الشرفة ".

كانت الشقة بسيطة ولكنها مؤثثة بذوق جيد، وعلى الجدران كانت أعمال منسوجات هندية ذات ألوان متعددة رائعة، وتفوح من الجرار والدوارق الفخارية القائمة في أنحاء الشقة روائح الزهور.

" لاحظ كم هو جميل تصفيف نينا للزهور، إن ذلك يسري في دمائها، الهنود يحبون الورد والألوان القوية، وفي السوق يمكنك ملاحظة النساء والرجال الذين يلونون بصبر وعناية أوعية الزهور ويختارون ببطء باقة من الزهور تعجبهم، نعم يا البرتو، فلندخل، أفعل ما يريحك وتصرف وكأنك في بيتك ".

ينبعث الآن من المطبخ صوت إيقاع موسيقى، وعرف البرتو ماذا يعني ذلك، إن نينا تقوم بصنع المعجنات، والمعجنات المصنوعة من الذرة لا يمكن أن تكون غائبة عن المأكولات المكسيكية، وهو الآن يعلم أيضاً كيف يحضرونها، ففي مدينة مكسيكو، وليس بعيداً عم مسكن الخال كان قد لاحظ ذلك في محل لصنع المعجنات عندما رافق الخادمة لشراء حاجيات للبيت.

وتطحن الذرة على أحجار مسطحة، وذلك بدحرجة حجارة مدورة ثقيلة عليها، ثم يخلط الطحين مع الماء وشيئ من مادة لأجل تماسك العجين، ثم تبدأ يد المرأة الماهرة مع كثير من الموهبة والإيقاع في العمل، وتتطاير قطع من العجين خلال عمل اليدين، تتسطح و تعرض، وتصبح دائرية، وفي غضون ذلك، تكون النار قد أوقدت في الفرن الذي يعمل على الخشب، وهناك حوض من الفخار فوق الفرن، وعندما يصبح ساخناً تماماً تلقى صفائح الذرة فوقها، وتقلب إلى أن تصبح جاهزة، تلك التي يسميها الهنود توتيلا. والهنود يعوضون التورتيلا عن الخبز، وعن الصحون، وهم يضعون اللحم بين طيات هذا الخبز، ثم إلى الفم مباشرة.

مرقة الفاصولياء ذات قوام سميك، وخضرة أو بضعة فليفلات حارة، يرشها المرء على التورتيلا، وبالإمكان تناولها بدون استخدام السكين أو الملعقة، وبدون تلويث الأيادي، وذلك بلف هذا الرغيف وأكله مباشرة. وبقاء الأيادي نظيفة مهم للزابوتيكيين في يومنا هذا، إذ أنهم يحبون النظافة جداً ويغسلون أياديهم وأفواههم قبل وبعد تناول الطعام.

وعندما يذهب الفلاح إلى حقله للعمل طوال النهار تحت السماء في العراء، فإنه يدس في جيبه كرة كبيرة من خبز الذرة، وإذا أحس بالشهية، فإنه يقصد أحد القصابين الذي يضع عليها شيئاً من البطاطا المهروسة، هكذا اليوم، وهكذا كان الأمر دائماً، ومثلما كان الرز للصينيين، كانت الذرة للهنود.

هيأت تينا المائدة، ولكنه كان يوم سبت، ففي تلك القرى النائية الصغيرة لا يتوفر اللحم إلا مرة واحدة في الأسبوع، والأيام الخمسة أو الستة من الأسبوع، فالوجبات لا تضم في عدادها اللحم، بل هناك وجبات الذرة، الفاصولية، الفلفل الحار، فواكه، البيض. وبحسب المناطق يوجد السمك والحليب والجبن.

أجهدت نينا نفسها كثيراً، والوجبة الممتازة التي أعدتها كانت تتألف من فطيرة فليفلة حارة محشية باللحم، وكان البرتو يراقبها باهتمام وهي تعد الوجبة، فهو يحب الطبخ، وأراد طبعاً أن يعلم كيف يطبخ الهنود. وقلبت نينا الفطيرة فوق النار ثم عرضت القسم الخارجي منه للنار، وملأت الداخل باللحم ثم قلبت الفطيرة في صفار البيض، ووعته في السمن السائح.

" ألا يعجبك هذا البرتو، أنت لم تقل شيئاً ..؟".

" على العكس، ولكنه حار جداً ...! ".

13 : الماضي الغارق في الأسرار

كان هناك 14 يوماً أما بيدرو حتى بدء الدراسة وافتتاح المدارس، وكان وقت حصاد وفيه يحتاج أعلب الفلاحين لأطفالهم في الحقول، جلس بيدرو وكتب تقريراً إلى وزارة التعليم، فيما كان البرتو يحاول أن يجمع الدجاج في الحديقة في قن خاص لهم، إذ كان نسر يحلق في الأعالي، وكان هذا الطائر اللص قد تسلل وأخذ مدار الصقر الذي لا يهاجم الدجاج.

وفي هذه الأثناء فتح الباب ودخل عجوز هندي إلى الحديقة وكانت قدماه المغبرتان تذكر بالجذور، ولون بشرته كانت بنية متشققة ومجعدة، يرتدي سروالاً كتانياً أبيض اللون، وسترة، يعلق كيساً على جنبه ويمسك بها بيده اليسرى. وعندما أكتشف وجود بيدرو على الشرفة رفع عصاه للتحية وأشار إليه إلى مدخل الشقة، ودخل هذا بدون أن ينتظر بيدرو إلى البيت.

بعد ثوان، كانا يقفان في غرفة الصالون أحدهما مقابل الآخر، كان الهندي يتطلع خجولاً، وأغلق الباب ورائه، وبعد أن تأكد أن لا أحد يشاهدهما، أخرج من الكيس لفائف من القماش، ومن بين طياتها شيئاً صغيراً، وكان العجوز قد باع لبيدرو قبل بضعة أشهر صحناً كبيراً من الفخار، وهو الآن يعرض عليه بالتأكيد قطعة قديمة أخرى. ولكن بيدرو لم يصدق عينيه هذه المرة، إذ أن العجوز قد جلب معه قرطين أذن من الذهب، ها هي مطروحة أمام عينيه.

العملات القديمة، رؤوس النسور المحنطة ذات الجودة العالية في العمل، كذلك الأجراس الذهبية، كانت من الأشياء الجميلة النادرة، وقد حفظت بدون أن تلحق بها عيوب، بحيث لا يستطيع المرء إلا أن يتصور أنها قد غادرت الورشة لتوها. وبلمحة واحدة، عرف بيدرو أنه أمام قطعة رائعة من حلي الميكستيك القدامى، ترى كم يريد العجوز مقابلها ..؟

" ماذا يتعين علي أن أفعل أيها الأب ؟ ".

" ربما أنك ترغب في شرائها أني أعطيها لك لأني بحاجة إلى نقود، ولدي الوحيد مريض، ماذا ستعطيني مقابلها ..؟ ". تطلع الرجل الهندي برجاء إلى بيدرو الذي كان يحاول أن يخفي دهشته والمفاجأة عليه.

" من أين حصلت على هذه الحلية ..؟ ".

" لقد عثر عليها ولدي في الحقل ..! ".

وحيث أن ذلك لا يمكن أن يكون صحيحاً، إذ لم يكن ممكناً افتراض العثور على قطعتين كهذه بحالة ممتازة بعد قرون عديدة في أرض زراعية، فالعجوز يكذب إذن ..! أو أنه كان فعلاً على هذه الدرجة من السذاجة في تصديق أبنه.

ولم يستطع بيدرو في تفكيره أن يتعرف على كيفية حصول العجوز عليها، فسأله " من أين جئت بها ".

" على مبعدة ثلاث ساعات من هنا، بعد نبع ريو دي لا لانا، إنها قرية صغيرة يا سيد، نحن نسميها تولاكوستى ".

ويبدو أن بيدرو كان قد سمع بهذه الأسماء.

" إني سأقترح عليك، أن تعطيني أنت الحلية، وسوف أقوم أنا بعرضها على قوميسار الحكومة للقى الآثارية، ربما سيقوم المتحف بشرائها، وآنذاك سوف تنال سعراً جيداً، وأنت تعلم بأننا يجب أن نفعل ذلك ".

وبدا على العجوز أن الاقتراح لم ينل استحسانه، إذ قال " أنا لا أريد أن يأتي القوميسار، نحن نعيش بسلام ".

وشعر بيدرو أنه قد أرتكب خطأ باستعجاله، والمسألة الآن هي كسب الوقت إلى أن يهدأ العجوز.

" سوف نتحدث فيما بعد، بعد أن نتناول شيئاً من الطعام، لقد نسيت تماماً أن أقدم لك شيئاً ".

" دعك من هذا يا سيد، فإني لا اشعر بشيئ من ذالك ".

ولكن بيدرو أصر وأجلس العجوز على كرسي وقال له " سأعود حالاً ". وذهب إلى الحديقة ونادى على نينا، فقد كانت مع البرتو في قن الدجاج، وكانت الدجاجات تقاقي بصوت مرتفع منزعجة. لم تكن نينا قادرة على سماع بيدرو، لذلك كان على بيدرو أن يسير حتى قن الدجاج، وبعد أن عاد، كان العجوز قد اختفى، وركض الاثنان إلى باب الحديقة ونظرا إلى الطريق الذي يصل إلى القرية، ولكن الأرض كانت قد ابتلعت العجوز.

غريب ..! ترى مالذي يختفي وراء كل هذه الحكاية ..؟ فقد قرر بيدرو أن يتابع القضية، إن شيئاً ما هنا على خطأ، وحتى في القرية لم يكن أحد قد شاهد العجوز، ولابد أنه اختفى مباشرة في الجبال، وعندما مر بيدرو مباشرة من أمام كوخ كارلوس البدين، قابله أربعة أطفال يتصايحون وسحبوه من يده إلى داخل الحوش.

" العم بيدرو، أخبرنا شيئاً عن المدينة، أخبرنا رجاء ..! ".

ولكن بيدرو تنحى بلطف ثم دخل الكوخ ووجد كارلوس يشخر على حصيرة، كان نائماً بعمق لدرجة أنه لم يسمع صرخ وضجيج أولاده، وهزه بيدرو بلطف " هي .. هي .. أيها العجوز الكسول أستيقظ فقد جاء رئيسك ..! ".

نهض كارلوس وفتح عينيه .." ها .. هذا أنت ..! ".

" لماذا تنام في رابعة النهار بينما تدع زوجتك تعمل في الحقل ..؟ ".

" إها عطلة، وحتى معلم الموسيقى يجب أن يرتاح أيضاً ألا تجد ذلك ..؟ ".

" تعال الآن، ينبغي أن لأتحدث معك حول شيئ مهم ".

وبعد أن أستمع كارلوس إلى حكاية الرجل العجوز المليئة بالأسرار، بدا وكأنه يفكر ملياً.

" هل جاء هذا العجوز من تولاكوستلان ..؟ أنها تقع هناك، حيث ينتهي العالم، هناك يؤمنون بالعفاريت والأرواح ولطالما مررت في تلك القرية أثناء تجوالي ".

ضحك بيدرو وقال " أعترف أنك كنت كسولاً في تسلق الجبال ".

أبتسم كارلوس وقال " هذا ممكن، ولكن يمكنك أن تصدقني فيما يخص سكان تولاكوستلان ومسألتهم مع العفاريت ".

" عفاريت هنا، عفاريت هناك، علينا أن نتابع القضية وأنت ستأتي معي، فسوف نحتاجك لنستقبل الرصاص ".

وبد أن كارلوس لم يكن معجباً بهذا المقترح، ولكن بيدرو كان صديقه ولا بد مكن مرافقته مهما كان. وقد هيأ المستلزمات بكافة التفاصيل ليأخذها معهم حتى الأدوية، إذ أن المرء يحتاج إليها في مثل هذه القرى النائية، واتفقا على ساعة الحركة غداً صباحاً.

14 : لغز تولاكوستلان

تحرك الرجلان ومعهما البرتو في صباح اليوم التالي، وبعد مرور ساعة من المسير على الأقدام كان الثلاثة قد ركضوا أيضاً طلباً للدفء، ولكن الشمس أشرقت الآن فوق الجبل وقد بدؤوا يالتعرق. وكان كارلوس البدين يسير في الأخير ويدمدم بصوت منخفض بحيث لا يسمعه بيدرو " هذه فكرة مجنونة طبعاً ..! فقد سحبنا بيدرو إلى هذه الجبال، فقط لآن روحاً جبلية طرحت أمامه قطعة من الصفيح المذهب أمام أنفه، ويعرض حياته للمغامرة .. آه يا إلهي ".

كان البرتو يود لو ينفجر ضاحكاً، فهو كان لا يجد أن البدين ظريفاً، ولكنه يفعل ذلك ربما لأن البدين لم يكن جاداً في ولولته. كان البرتو في وضع نفسي أفضل إذ أن الموقف يبدو يقود إلى مغامرة حقيقية، والظاهر أن الوضع في الجبال ليس سهلاً تماماً، لذلك فإن بيدرو كان قد عبأ مسدسه وهو من نوع كولت ضخم في حزامه.

" لا يعلم المرء أبداً ما قد يحدث " قال البدين.

وكانت تولاكوستلان تقع خارج الدائرة التعليمية لبيدرو، وكان من المعروف بأن الهنود في هذه الأنحاء كانوا معادين للغرباء بصفة تامة ".

" سيكون لدينا وقت " قال بيدرو " أن نزور الناس هنا، العجائز نعرفهم، سيفتحون عيونهم دهشة عندما سيروننا قادمين ".

" كان كارلوس قد تأخر قليلاً، ثم بغتة نادى قائلاً " قفوا .. قفوا هنا ..! ".

" ماذا يوجد ..؟ ".

" قفوا هنا .." قالها كارلوس وضرب الأرض بقدمه.

" انحنى بيدرو إلى الأسفل ليعاين الموقع.

" أيتها السيدة العذراء، آثار جديدة لأحذية مطاطية حديثة، يمكن التعرف عليها بوضوح، ترى من يرتدي هنا أحذية كهذه ..؟ ".

دون أدنى شك، لابد أن يكون قد مر من رجل غريب من هنا قبل وقت قصير، ثم واصل كارلوس بحثه " وها هنا طبعة حذاء أخرى ".

أشار كارلوس إلى خط رفيع من الرمال على يمين الطريق، وهنا أيضاً كانت الطبعات واضحة تماماً، وبدون أي شك كان هنا غريبان يرتديان أحذية أهل المدن، وقد مرا من هنا باتجاه القرية. وبوضوح أيضاً، فقد كان معهما حيوان للحمل، إذ هناك آثار حديثة لحوافر حمار، والبرتو وجد أن هذا الاكتشاف ليس مهماً جداً، غيما كان وجه بيدرو يعبر عن تفكير عميق.

" إذا كان قد ظهر هنا من أبناء المدن الذين لا أعرف عنهم شيئاً، فعلى الأغلب أنه أمر سيئ، وإذا كان أحداً من السلطات الحكومية في الطريق إلى هنا، فمن المؤكد يأتي عندي، ترى هل أرسلوا أحداً إلي هنا ..؟ ما هو رأيك كارلوس بهذه الآثار ".

" لدي شعور، بأن الحلية الذهبية القديمة لها علاقة مع الناس القادمين إلى هنا ".

أخرج بيدرو عدسة مكبرة من الحقيبة وقربها من عينيه وبدأ يبحث في الأرض أمامهم، ربما يمكن العثور على شيئ من آثار الغرباء، ربما كان العمل طويلاً في تتبع اللقى.

" هنا .. هنا .. ها هم هنا ..! ".

وأعطى بيدرو العدسة لكارلوس، وأشار على أثر على الأرض.

" رجلان وحمار واحد .. سوف نتتبعهم ونراقبهم، إني أراهن أنهم سيتجهون إلى تولاكوستلان ".

لقد أثبت كارلوس بأنه مهم عند الضرورة، إذ قام بإسداء اقتراح مهم " إنني أعرف طريقاً قصيراً فوق الجبل، وهو مرتفع الزاوية ولكننا سوف نهبط من فوق الجبل، وهناك سنعلم ونرى ماذا يوجد في العش ".

أستغرب البرتو ما شاهده من كارلوس، والآن وحيث غدا الصعود والتسلق مرهقاً، كان على الثلاثة التوقف كل بضعة مئات من الأمتار لأستردد الأنفاس من الهواء الخفيف.

وبعد ساعتين تماماً من التسلق، أصبحت تولاكوستلان تحتهم مباشرة، ثم جعلوا لأنفسهم مكاناً مريحاً خلف بضعة صخور، ومن هذا المكان يمكن رؤية أكواخ القرية وجزء كبير من الطريق الذي جاء منه الغرباء. وكانت الحقول تمتد خلف القرية حتى تصل إلى سفوح الجبال، وبدأ بيدرو بالنظر خلال منظار مكبر، وكانت قمة الجبل المسطحة تبدو مثيرة للاهتمام. وشارك البرتو في النظر والمعاينة، وفكر فيما إذا كانت التلال الصغيرة هناك قد عملت الطبيعة وعواملها على تكوينها.

" غريب ..! تبدو القمة وكأن لها دمامل متساوية ".

" هذه البثور هي من صنع الإنسان، هنا نصل إلى حل للغز، خذ المنظار المكبر وتطلع ..! ".

" وعندما أمعن البرتو في المساحة الممتدة أمامه، قال فوراً " إنها تبدو وكأنها خرائب وأنقاض على ظهر جبل مونت البان، ولكن لم يتم ردمها بعد ".

" لقد قلت لكم(قال كارلوس) هناك تسكن الأرواح، إنني أعلم أيضاً أن الناس في تولاكوستلان يقدمون الضحايا للآلهة فوق القمة ".

" ولماذا لم تخبرني أيها العجل السمين عن هذه الأنقاض ..؟ " قال بيدرو بعصبية.

" لأني لا أريد أن أحشر نفسي مع الآلهة، على المرء أن يدع هذه الأشياء وشأنها كما هي وحيثما هي ".

وكان كارلوس في قناعاته الداخلية قد بقي هندياً.

" أتلاحظ البرتو، هذا هو الإنسان الذي أهتم به كأب، وهو ما كان ويزال يشكل ثقلاً على كاهلي " قالها بيدرو بدعابة.

" ولكننا نفرح بالرغم من ذلك باكتشافنا لمدينة التضحيات مقدسة. وقد غدا بالنسبة لي واضحاً، لماذا يعثر الناس في تولاكوستلان بين الحين والآخر على لقى آثارية ..! ".

" هل كان العجوز قد وجد كلا القرطين في حقل واحد، تلك ستكون مصادفة كبيرة " سأل البرتو.

" إن الحلية الذهبية هي من قبر واحد، إنني متأكد من ذلك تقريباً، لقد جئنا في لحظة مناسبة ولربما أننا سنتقي شر بلاء كبير ".

قام كارلوس بسحب البرتو من أكمامه وأشار إلى طريق عليه آثار خطوات(على الأغلب) للغريبين مع حمارهم، والطريق يؤدي إلى القرية. وعلى الأغلب فإنهما قد انتظرا هنا، ثم خرج من أحد الأكواخ رجل قابلهم وأخذ منهم أعنة الحمار وربطه إلى شجرة صبير، ثم أختفي الرجال الثلاثة داخل الكوخ.

" الآن نستطيع أن نتمدد هنا ونتعفن(قال كارلوس) إننا لم نعد نفكر أبداً بأننا بأي عذر أو حجة نزور هذه الأرجاء، وإذا كان هناك شيئ غير صحيح يدور هنا، ففي هذه الحالة فالناس سيخافون منه كما يخافون من الشرطة ".

" كارلوس على حق، كيف ينبغي أن نتصرف ..؟ " وكانت لدى البرتو فكرة، فأستطرد قائلاً " ألم يقل العجوز أن ولده مريض ..؟ دعونا نذهب إليه ونقول له بأننا جئنا لمساعدة ولده، وبذلك لا يستطيع أن يأخذنا على محمل الشر ".

" هذا إذا لم يشم رائحة الشواء ".

" هذا لا يفيد، علينا الذهاب حالاً، إن فكرة البرتو غير سيئة، ولكن الصعوبة هي إيجاد العجوز حالاً، ونحن لا نعرف حتى أسمه .. ! ".

كان الشارع في القرية يبدو ميتاً، ولم يكن ليشاهد أي إنسان في الطريق الخالي، إلا بضعة كلاب كانت نائمة تحت ظل الأشجار، وكان الحمار الذي جلبه الغريبان مربوط من أعنته.

" الأفضل هو أن نذهب إلى الكازيك (شخصية مسؤولة في القرية ربما يعادل المختار أو العمدة ـ المترجم) ونسأله عن الرجل العجوز " قال بيدرو.

كان كارلوس واقفاً بالقرب من شجرة صبير كبيرة ويسترق الرؤية من خلال ثغرة إلى داخل البيت، وغمز لكلاهما..

" أنظرا، هناك يجلس واحد منهم وهو غاف ..! ربما يكون صديقكم ..؟ " قال كارلوس.

" إنه العجوز فعلاً .. يا لها من مصادفة " قال بيدرو.

" ترى هل نوقضه ..؟ " أجاب كارلوس.

" ليس لدينا خيار آخر ".

دخل الثلاثة إلى باحة البيت، كان العجوز يشخر بهدوء، ثم فتح عينيه عندما بدأ بيدرو بمحادثته " لقد جئنا لمساعدتك أيها العجوز ".

هب الهندي واقفاً وقال " مالذي جاء بكم إلى هنا بحق الشيطان ..؟ ".

وطوال لحظة كان الأمر يبدو وكأنه يلجأ للقوة، ثم هدأت نفسه، وبوجه خال من التعابير طلب إلى الثلاثة الجلوس، فجلسوا على حصيرة كانت مفروشة على الأرض، بينما كان العجوز يجلي التورتيلا في إناء فخاري، ووضعه أما ضيوفه، ثم جلب ماء للشرب وقال لبيدرو " أشرب فمن المؤكد أنك عطشان ..! ".

وساد الصمت لبرهة، ثم قال العجوز " مالذي قادكم إلي في تولاكوستلان ..؟ ".

تهيأ بيدرو للإجابة، ثم قال " عليك أن لا تعتقد بأننا قد جئنا لنواصل الحديث عن الحلية، وإنني أفهم أيضاً أن ربما لك أعمالاً وتريد الخروج، وسبب وجودنا هنا ووصولنا إليك هو هذا الرجل الشاب. لقد جاء من مكان بعيد، من أوربا التي هي وراء الماء العظيم، وقد سافر ثلاثة اسابيع بواسطة سفينة هي أكبر عشر مرات من قبيتك، وجاء لمشاهدة المكسيك ".

نجحت المفاجأة، وراح العجوز يتطلع إلى البرتو بتعجب.

" الولد الشاب هو ولد طفل وقد قطع كل هذه المسافة ..! " كان يهز رأسه متعجباً .

" أتلاحظ " قال بيدرو " هذا الرجل الشاب هو ضيفي، ورغبة الضيف ينبغي احترامها، وقد أخبرته عنك، وعندما عرف أن أبنك مريض، قال لي: بيدرو ينبغي علينا مساعدة الوالد، وقد جلبت معي أدوية جيدة من أوربا والتي بها ربما نستطيع أن نشفي الولد وأن أتعرف على الأب الذي يحب ولده، أليس كذلك البرتو ..؟ "

" نعم بالضبط، هذا ما قلته، وإنه ليسعدني كثيراً التعرف عليك ".

ثم صافح البرتو الرجل العجوز ولمس بيده قماش الجاكيتة التي يرتديها، وسأل: " هل أنت من البلاد البعيدة ..؟ "

هز البرتو رأسه أن نعم.

" وأنت تريد أن تشفي أبني ..؟ ".

" ربما أني أستطيع مساعدته، وسوف نرى ".

أطرق العجوز مفكراً، ولمعت في عينيه قطرات من الدمع، وصافح بكلتا يديه يد البرتو اليمنى، قائلاً: " ينبغي عليك مساعدته ..! ".

وبذلك كان الجليد قد بدأ يتحطم، وبدا العجوز محباً للحديث، وابتدأ يطرح الأسئلة عن الأمور في أوربا، وكيف تبدو، وماذا يأكل المرء هناك، وفيما إذا كان الناس فقراء أم أغنياء. وكان يتحادث فقط مع البرتو تقريباً، وقد أستغل كارلوس البدين هذه المناسبة وهو الذي كان في الخلف، وبذلك أستطاع أن يتسلل ويختفي.

وبعد برهة قال البرتو " ألا تريد أن تقودنا إلى أبنك ..؟ ".

" نعم " هز العجوز رأسه موافقاً وقال " علينا الانتظار حتى يحل الظلام، لا ينبغي أن يرانا أحد ".

ثم نظر إلى بيدرو وأضاف قائلاً " أنت ينبغي عليك الصمت، إن أبني لا يرقد في القرية، وهو ما ينبغي أن لا تعرفوه وأنا خائف ". ثم استطرد قائلاً " إنني أعتقد الآن بأنكم تريدون مساعدتي ".

ثم وقف العجوز وأختار من بين العديد من الأواني الفخارية التي كانت مرصوفة حذاء الحائط، ووضعه أمام البرتو، ثم أخرج منه القرطين الذهبيين الذين يعرفهما بيدرو، وقال " إنها لك أيها الشاب إذا استطعت مساعدة أبني ..! ".

في هذه اللحظة دخل كارلوس عبر الباب وأتسعت عيناه عندما رأى الحلية، ولكن بيدرو قال للعجوز " أحتفظ بحليتك ..! أنت تعلم أننا لم نأت إلى هنا من أجلها، قل لنا الآن أين يمكن أن نرتاح، وأين يمكننا قضاء هذه الليلة ..! ".

" سنذهب عندما يختفي القمر، وهنا سيكون ثلاث ساعات بعد غياب الشمس، أنتم ستبقون عندي، لدي ما يكفي من الحصران لكم، ومن الأفضل لكم عدم الذهاب إلى القرية، هل معكم شيئ يؤكل ..؟ إذ إنني وحيد وزوجتي متوفاة منذ وقت طويل، والبنات قد غادرن البيت ".

كان كارلوس قد أعطى إشارات إلى بيدرو من دون أن يلاحظه العجوز، بأنه يريد أن يحادثه.
" لا تقلق أيها العجوز، نحن لدينا ما نحتاجه، وإذا سمحت لنا أن نذهب إلى باحة البيت ونغسل أيادينا " قال بيدرو.

" هذا جيد، ودورق الماء بجانب كيس الذرة ".

خرج كارلوس وبيدرو إلى الهواء الطلق، فيما بقى البرتو عند العجوز يتحدث له عن أسبانيا، كان العجوز فاغراً فاه كطفل عندما تروى له الأساطير.

في غضون ذلك، وجد كارلوس المناسبة لينطلق في رواية أخباره " لقد توصلت إلى الكوخ الذي يجلس في الرجال الغرباء، واسترقت السمع، بيدرو، إنهم بالتأكيد لصوص قبور، وخطرين

أيضاً، وهذا ما يفهمه المرء من طريقة محادثتهم مع الناس، إنهم يتحدثون بصوت عال ومع الرجل الذي يسكن الكوخ، قائلين له:

" لنتحدث باختصار، إذا لم تعمل معنا، وإذا لم ترشدنا على القبر الصحيح، فعليك أن تفكر بأكسوش وما حل به، إذ أنه دلنا على قبر مغشوش، ولا تتصور بأنك تستطيع أن تغشنا وتخدعنا ..! ".

ثم أنهم قاموا بتهديده بأنهم سيدمرون القرية بأكملها، ووضعها تخت المخاطر، وإذا كان لا أحد يريد أن يدلهم على الكنز، بمساعدة طوعية اختيارية، فسوف يدفع له أجر جيد. وفي الختام فأني قد فهمت بأن أحداً قال " إذن اليوم .. ! " وأنا لم أستطع سماع المزيد لأنكم خرجتم من الكوخ، وأنا جئت من أقصر طريق عبر تلك الزاوية ..! ".

أنهى كارلوس تقريره وأنتظر ليشاهد فاعلية ما رواه " ماذا تقول الآن ".

" أنت أذكى عجل يا بدين ..! هل قالوا اليوم ..؟ هل قالوا أنهم سيسرقون قبراً اليوم ..؟ فذلك سيكون ذروة ما نستطيع فعله ضدهم ".

" بل بالتأكيد ينبغي أن نفعل شيئاً، ولكن بالتأكيد ليس قبل حلول الظلام ".

" يا للعنة .. وماذا سنفعل بالعجوز وأبنه ..؟ ".

" بسيط جداً .. إننا سنترك البرتو معه وكذلك حقيبة الأدوية، والله يعلم إلى أين سيقوده العجوز، ولكن ذلك غير مهم الآن، نحن سنقول للعجوز بأن من الأفضل البقاء هنا وبذلك لن يرانا الناس، وهي بالنسبة له في كل الأحوال شيئاً ليس مريحاً هنا في القرية ".

" هل تعتقد بأن الغرباء قد عرضوهم للضغط ..؟ إذن إنني لا أرى شيئاً من ذلك، ولكن لي اقتراح آخر، إننا سنقول للعجوز بأننا كلانا سنذهب إلى سان جوزية، لإننا نحتاج إلى بعض الأدوية، ويبقى البرتو هنا ".

" ولكننا لا نعرف أبداً أي مرض لدى الولد ..؟ ".

" دعك من هذا، الحرب قد بدأت، نحن سنفعل هكذا كما لو أننا نتقدم إلى البيت، ونصعد إلى التل فوق القرية وننتظر هناك ما سيحدث، سنرى بأن الرجال سينطلقون، ونحن سوف نتابعهم ..! ".

" إذن جيد .. لنحيط البرتو علماً بخطتنا ".

15: الليل على جبل الأرواح

كانت قد مضت عدة ساعات والبرتو وحيداً مع العجوز، وكان بيدرو وكارلوس في الطريق، وكانا قد تركا لأبرتو علبة الأدوية، التي أطلع بسرعة على محتوياتها، وهو (البرتو) كان بحاجة شيئ من الراحة فوق الحصيرة الصلبة على الأرض. واستيقظ مرة أخرى وهو ينتظر بقلة صبر، فيما كانت عقارب ساعتة المضيئة تشير إلى بضع دقائق قبل العاشرة. وفي الكوخ الذي كان بدون شبابيك تسوده ظلمة حالكة، ومن خلال إطار الباب فقط، كان يتسلل شعاع أسود. آه .. لو أنه يعلم فقط إلى أن يأخذه العجوز ؟ ربما إلى قرية مجاورة ..؟ ربما إلى كوخ وحيد .؟ وأخيراً وقف العجوز وجاء إليه، وعرف البرتو: لقد حان الوقت، المغامرة بدأت، وسمع قلبه يدق بقوة أكثر من ذي قبل.

خرجوا من القرية بدون أن يشعر بهم أحد، وكان سكون يعمها، العجوز خطا بحذر إلى الأمام، والوجهة هي سلسلة الجبال التي كانوا قد شاهدوا أطلال وأنقاضها في الصباح. وظن البرتو أن العجوز سوف يصعد الجبل معه، ولكن قبل البدء بارتقاء الجبل بقليل، أنحرف إلى اليمين وبقيا على مستوى واحد من الارتفاع.

لم يكن هناك ممر مطروق منذ زمن حديث يمكن رؤيته، وقد أعطى العجوز البرتو نهاية عصاه في يده وسحبه خلفه بحذر، وقد استغرق هذا المسير نصف ساعة بمحاذاة الجبل، ثم وصلا إلى منطقة مستوية منبسطة، وهناك غابة صغيرة من أشجار الصنوبر، وهنا مال العجوز مرة أخرى إلى اليسار.

" لم يعد هناك الكثير لنصل إلى أكوشي يا ولدي " قال العجوز بغتة، وكانت الكلمة الأولى له منذ أن أصبحا في الطريق إلى هنا.

" هل يوجد بيت هنا ..؟ ". سأل البرتو.

" لا، أنك سترى بنفسك ..! ". انسحبت الغابة شيئاً ما إلى الجبال صعوداً، وكانوا قد وصلوا إلى الجانب الآخر من السلسلة الجبلية. وكان الظلام دامساً تحت الأشجار، بحيث لم يكن ممكناً لألبرتو أن يتعرف على العجوز إلا بصعوبة، وغالباً ما تعثر، واصطدم حذاؤه بجذور النباتات وبالصخور، بينما كان يصعد الجبل بحذر.

وعندما كفت الغابة وانتهت، لمعت النجوم فوقهم مع أن السماء لم تكن صافية تماماً، والطبقة العليا من السلسلة الجبلية كانت تبدو وكأن أحداً ما قد شيد لها شرفة التي كانت تصعد إلى السماء وتنتهي إلى حيث أكوام الأنقاض على مساحة مسطحة فوق السلسة وكان هناك درج من الحجارة المتساقطة يقود من فقرة إلى أخرى.

توقفا في مرحلة من الصعود، وضل العجوز واقفاً ينصت، وكان البرتو كما لو أطلق أنيناً خافتاً، كأنها تنبعث من باطن الأرض، ولكنه كان يفتقد إلى ما كان كارلوس قد تحدث عنه، بأن العفاريت والأرواح تسكن فوق هذا الجبل ..! ترى هل هي الريح، أم أن أذنه لا تسمع جيداً ..؟

أشار إليه العجوز أن يجلس، ثم ذهب إلى الشرفة المسطحة حيث ينبعث الأنين الذي سمعه البرتو أيضاً.

ودفعة واحدة، لم يعرف البرتو كيف، أختفي العجوز الذي يقوده بين صفين من الصخور كما لو أبتلعته الأرض. واشتد قلق البرتو، كانت ريح الجبل تصفر بصوت منخفض، ومرة أخرى عاد صوت الأنين ينبعث، وعها هو الآن يسمع أصوات، وللحظة توهج ضوء، ثم ساد سكون. تطلع البرتو إلى جميع الجهات، ولكن لم يكن هناك أحداً ليراه.

وبغتة ظهر العجوز مرة أخرى، على مبعدة بضعة أمتار من البرتو، وأشار إليه أن يتبعه، ثم سارا على طول الشرفة إلى أن وصلا إلى جدار قديم بين بقايا أرض رملية، وكان هناك ثقب مظلم في الأرض، ونزل العجوز إلى الأسفل أولاً بمهارة، وتبعه البرتو في النزول، ترى ها كان ذلك قبراً قديماً ..؟ غبي جداً بحيث أن بيدرو لم يأت بعصا معه إلى قبور مونت البان، إنه الآن يعلم مالخطب، وتعين الأمور بسهولة.

ووجدوا أنفسهم ضمن غرفة صعبة ذات جدران مبنية، وهنا كان بالإمكان سماع الأنين بصورة أوضح، سرت قشعريرة على ظهر البرتو، ثم خطر على باله بأن توجد هنا غرفة أخرى تحت الأرض، ترى أيرقد هنا تحت الأرض أبن العجوز المريض ..؟

تمتم العجوز بضع كلمات بنعزومة وذات لحن باللغة الزابوتيكية، لم يستطع البرتو أن يفهم ماذا قال، ولكن من هناك حيث ينبعث الأنين، أجاب صوت ضعيف، والآن أشعل العجوز عود ثقاب، ورأى البرتو بأنه على الجانب العريض للغرفة مخرج قصير يؤدي إلى غرفة أخرى، وفوق المدخل، على السقف تقريباً، كان هناك ركن، ومن تمثال فخاري موحش، لمح خيال رجل متسلل.

كان عود الثقاب قد أطفئ، أخذ العجوز البرتو من يده وقاده بحذر عبر بضع درجات حجرية إلى الأسفل، وقد أحس بأن الأرض تحت قدميه أصبحت رملية ناعمة.

" أكسوشي " قال العجوز مرة أخرى بالأسبانية " هنا صديق شاب جاء ليساعدك بأدويته ".

ثم أن العجوز أشعل شمعة صغيرة ووضعها فوق حجارة بارزة عن الجدار، ولم يكن ضوء الشمعة ليصل شعاعها إلى آخر الغرفة الطويلة، وعلى ملاط الجدران بارتفاع متوسط هناك صور باللون الأحمر والبني، ولم يكن البرتو يستطيع أن ينتبه إلى الصور، إذ كان أمامه على الأرض حصران يتمدد عليها أكسوشي الأبن الذي رفع بجهد كبير يده للتحية ولكنها سقطت مرة أخرى على الغطاء.

لا بد أن الولد مريض بدرجة خطيرة هكذا فكر البرتو، عندما شاهد أمامه وجهاً مصفراً بلون شمعي، وشعر على التو بالعطف في قلبه. وعندما لمسه بدء بلعب دور الطبيب، ففتح حقيبة الطبيب التي أعطاها له بيدرو، وأخرج مقياس الحرارة (ترمو متر الحرارة) ودسها تحت أبط اكسوشي الذي كان يتأوه.

" أين تشعر بالألم يا أكسوشي ؟ " سأل البرتو، كما كان قد سمعها مراراً من الدكتور راخيل في بلدته سان سباستيان(في أسبانيا). أطلق أكسوشي تنهيدة بصوت مرتفع، وأشار العجوز إلى بطنه.

" هنا .. أصابوه الكلاب ..! ".

وهنا عرف البرتو كيف حدث "المرض" ولكنه لم يستطيع أن يفهم لماذا لم يخبره العجوز حالاً بأن ولده جريح من جراء طلقة في بطنه، ولكن البرتو كان قد أعتاد على أن الهنود لا يفكرون كما يفكر البيض.

سحب الغطاء جانباً، لكي يستطيع أن ينظف الجرح، ورفع القماش الكتان، وحمل العجوز الحقيبة، وأخذ عدة لفافات كتان نظيفة لتبديل لفافات المصاب، وبقواهما كليهما، تمكنا من حمل المريض ومن فك اللفافات من حول ظهره، وكانت أبسط حركة تؤلم المريض، كما أن أي حركة غير صحيحة سوف تضر بالمريض، وهذا ما قدره البرتو على الفور.

" يجب نقل أبنك إلى المستشفى في أوكساكا، وهناك فقط يمكن مساعدته " قال البرتو، وبالفعل لم يكن بوسعه إسداء نصيحة أخرى، فقد كان مقياس الحرارة يشير إلى 45 درجة.

" سوف أعطيه حبوب ضد الآلام والأوجاع، من أجل نوم هادئ ". كان البرتو يتعاطف كثيراً من العجوز الذي يبدو عليه الحزن الشديد والإحباط بشأن ولده.

" كم مضى على أكسوشي وهو راقد هنا ..؟ ".

راح العجوز يعد على أصابعه وقال: " منذ ستة أيام ".

استغرب البرتو، بأن يضل أكسوشي على قيد الحياة بعد كل هذه المدة الطويلة وبدون مساعدة حقيقية، نعم فهو يعرف بأن للهنود طبيعة صلبة، وكان الأرب يسقي أبنه ماء منقوع الذرة، ويقطعه فطيرة التورتيلا إلى قطع صغيرة ويدفعها في فمه كما يفعل المرء مع رضيع.

أخذ البرتو يتطلع على ضوء الشمعة، على الرسوم الغريبة على الجدران. المحاربون مع أسلحتهم: القوس والسهم، ثم حلية رأس فخمة، أو صور لهيئة الآلهة، ولكنه شاهد على أرض المقبرة قطعاً من كسور عظام، وفي الزاوية المظلمة، كانت جمجمة لإنسان، وهنا عاد البرتو إلى التفكير، ترى أين هو الآن ..؟

شعر ألبرتو على الفور بخفقان قلبه يتصاعد إلى رقبته، وهبت نسمة هواء مفاجئة أطفأت الشمعة، وجلسوا صامتين في الظلمة، وكانت الحبتين من المنوم التي أعطاهما البرتو لأكسوشي قد أدتا مفعولهما بعد دقائق قليلة، فقد نام المريض وبدأ يتنفس بهدوء.

" هل ترى أيها العجوز، إنه قد غدا الآن أفضل، لقد ساعدته أدويتي ".

لم يجب العجوز البرتو، بل لمس يده وضغط عليه، ثم رفع سبابته أمام فم البرتو، وأحس البرتو بالحزن والخوف.

وفي الخارج، كانت تسمع أصوات، وبدأ شعاع ضياء من مصباح يدوي في الغرفة الأولى، وكان شخصاً ما يضحك بفضاضة" " هنا في الأسفل يرقد أكسوشي كجرو ميت ..! "، وقال آخر " أتريد مشاهدة هذه الجثة النتنة ..؟ "، فأجاب الصوت " دع ذلك لوقت لاحق ..! ليس لدينا

وقت لذلك، وهذه المرة فإن الفريدو الرث سوف يدلنا على قبر حقيقي، هيا الفريدو ..! لا ترتجف هكذا، نحن لا نؤمن بعفاريتكم الوهمية ".

" نحن نؤمن بالدولارات الجيدة ..! " (للأسف هذه قناعة بعض من يسمون أنفسهم سياسيين في عصرنا ـ المترجم) التصق البرتو بالجدار وكان قلبه يقرع بشدة، كم هو جيد أن ينام أكسوشي بدون أنين، من يعلم ماذا سيحصل، إذا ....! ولكن الخطر ما زال ماثلاً ولم يغرب بعد.

" هذان هما الغريبان " تمتم العجوز، ودب كالقطة وأنصت " إنهما في قبر الأرواح القديمة وسوف يأخذهما الشيطان ".

ومن بعيد تسمع أصوات مطارق وطرق، ومن المؤكد أن اللصوص هم الآن بصدد فتح قبر. هكذا فكر البرتو، آه لو جاء بيدرو وكارلوس إلى جانبه في هذه الظلمة، نبش العجوز في كيسه، ثم دس في يد البرتو شيئاً وقال " خذ هذا، سوف يحميك، أكسوشي وجدها في الرمل هناك حيث يرقد الآن ".

قلب البرتو القرطين بيديه، إنه الآن يستطيع أن يتعرف بأنهم الآن في فخ، ومضى العجوز يصعد الدرج مرة أخرى، ورفع رأسه إلى العراء بحذر، وفجأة هبط الهندي بما يشبه السقوط والتصق بالجدار في الزاوية البعيدة للغرفة، ثم تراقص ضوء المصباح اليدوي على حافة درج الصعود، وتناهت أصوات خطوات تقترب، التصق البرتو بالجدار أيضاً، وسقط الضوء من الأعلى مباشرة وشكل دائرة على الأرض، ثم نزل أحد الرجال وأطفأ المصباح اليدوي ودخل إلى القبر المظلم، وعندما أضاء المصباح مرة أخرى، تسلط شعاع الضوء مباشرة على وجه البرتو، فصدم الرجل، ولكنه سحب مسدساً على الفور وقال:

" ها، هذه حقاً مفاجأة، ماذا تفعل هنا يا وجه الحليب ..! ".

تمالك البرتو نفسه، وهز كتفيه " ها .. هكذا، ألا تعلم كيف ..؟ ".

ثم رأى الرجل أكسوشي الذي كان لتوه قد بدأ يفتح عيناه.

" ها .. أنظر هنا .. الرجل القذر الذي لم يشأ أن يدلنا على القبر ما زال حياً، ولذلك ينعقد هنا أجتماع .. ها .. علينا في هذه الحالة أن نضحي ببعض الطلقات، هيا .. هيا .. ".

ولكن بقية الجملة ظلت في بلعومه، إذ أنهار الرجل الضخم دفعة واحدة، وسقط مسدسه أمام أقدام البرتو الذي هجم عليه فوراً، والمسألة برمتها كانت من أداء العجوز الذي هجم بقوة وضرب اللص من الخلف على رأسه، وكان المصباح اليدوي قد سقط أيضاً على الأرض، وأضاء قدمي أكسوشي، وركع العجوز على ظهر اللص هو يتنفس بصعوبة وضغط برأسه في الرمال، وأدار زر المصباح اليدوي وأطفأه، وتوقف القرع والطرق في القبر المجاور، وكان من المحتمل في أي لحظة أن يأتي اللصان الآخران ليشاهدا ما حل بشريكهما، هذا ما كان البرتو يتصوره.

حمل البرتو المسدس بيده اليمنى، وفي اليد الأخرى المصباح اليدوي، وهنا دوت صوت من بعيد طلقة ثم بدأ صوت سباب ولعنات، ثم صوت طبقة مرة أخرى، وقد تعرف البرتو على

صوت بيدرو، وأراد أن ينهض ويخرج من القبر، لكنه فكر بالعجوز وبأبنه، وإنه يجب أن يبقى إلى جانبهما، فهناك احتمال أن يستفيق اللص.

" أرفعوا أياديكم " زمجر صوت كارلوس في الجوار.

وهنا لم يعد البرتو يستطيع التحمل، فصاح بأعلى صوته" بيدرو ..! كارلوس ..! نحن هنا ".

"كان العجوز في غضون ذلك قد تمكن من شد يدي اللص خلف ظهره بواسطة لفافة كتان، ثم أنه قلب الرجل الغائب عن الوعي على جنبه الآخر، إذ لم يعد بالإمكان أن يمثل خطراً، وخرج البرتو من القبر حيث كان كارلوس واقفاً ينظر بدهشة، وتقدم لمساعدته، وقال البرتو: " هذا ما لم يكن منتظراً، بأن نكون جالسين هنا في قبر، أليس كذلك ...؟ .. لقد جئتم في اللحظة المناسبة ".

وعلى الفور، قام كارلوس بشد وثاق الهندي الذي قام بواجب الدليل للصوص.

" هنا كان واحد منهم .. لقد كانوا ثلاثة إذن ..! " قال البرتو.

" هناك أحدهم على الأرض أضطر كارلوس لإطلاق النار عليه، فقد كان اللص فوقي مباشرة " ثم قال بيدرو مستطرداً " لقد كان شيئاً لا يمكن تفاديه ".

والآن يتعاون الجميع بكل قواهم في حمل اللص الذي كان ما يزال فاقداً للوعي من داخل القبر، ثم أخرجوا ايضاً أكسوشي بحذر من سجنه غير الأختياري..!، وفرش كارلوس ملاءة فوق اللص القتيل، وقام البرتو بعرض سريع يروي فيه الأحداث التي واجهته. فيما صنع كارلوس متعيناً بالمجرفة والفأس محفة لحمل المريض.

وفي (مقبرة الأرواح) كانت قد حدثت ثغرة واسعة في الجدار، وتحامل بيدرو حتى وصل إلى حيث يستطيع أن يلقي نظرة، إلا أنه كان مقتنعاً بأن هذه الثغرة في الجدار تؤدي حتماً إلى غرفة أخرى وإلى المقبرة الحقيقية، لذلك قام بإغلاق هذه الثغرة بصورة اضطرارية مؤقتة.

والهندي الفريدو والذي اسماه أحدهم باللص، كان يشكو ويتحسر، مما أزعج كارلوس الذي صرخ بوجهه " يكفي، توقف عن العويل والنواح، لم يمسك أحد بشيئ ".

رجاءاً يا سيد، لا تقتلني، لقد قاموا بإرغامي، إني أقسم على ذلك بشرف الأم المقدسة ..!".

فرد عليه بيدرو: " فيما إذا كنت مذنباً أم لا، فهذا ما سوف يظهر عندما تمثل أما القاضي ..!.. حل وثاق يديه يا كارلوس، حيث ينبغي أن يساعدك في حمل النقالة، وأنت أيها العجوز، أذهب إلى الأمام وسوف آتي أنا مع الرجل " وأشار بيدرو إلى اللص الذي كان في غضون ذلك قد أستعاد وعيه، وبدأ بالمسير أمامه وهو ممتلئ كراهية، ولكنه لا يتمكن من الكلام لأن العجوز كان قد دس في فمه خرقة ليمنعه عن الحديث، وبيدرو يسير خلفه.

" إذن لنشكل الرتل هكذا، كارلوس مع النقالة، ثم الفريدو، البرتو يسير بجنبك وهو سيساعدك ".

" وماذا نفعل مع الموتى ..؟ " سأل البرتو.

" ينبغي تركهم هكذا كما هم على الأرض، إلى أن تشاهدهم الشرطة، والآن دعونا ننطلق " أمر بيدرو.

ووصلوا إلى القرية مع بدء بزوغ الشمس، وهذه المرة كان كل شيئ في الشارع، ولابد أن أحداً قد راقب المسيرة وجاء الكازيكا (هي شخصية مهمة في القرية المكسيكية بما يعادل المختار أو العمدة في أقطارنا العربية ـ المترجم) وصافح بيدرو، وكان النساء والأطفال واقفين في دهشة من هذا الرتل الصغير، والفتية الشبان كانوا يبصقون أما اللصوص، فيما بدا العجوز مشرق الوجه ويلقي بالإيضاحات خلال مسيره، فقط المسكين أكسوشي كان متمدداً شاحب الوجه يعاني الألام.

لم يدعهم العجوز الذهاب إلى قرية سان جوزيه لوحدهم، بل أصر على مرافقتهم، وقاد بنفسه الحمار الذي وضعوا الجريح عليه، وهكذا كان بوسع الثلاثة مراقبة اللصين، أما بيدرو فكان مستعجلاً، إذ من الممكن أن يكون للصوص رفاق لهم في مكان ما قريب، الذين يمكن أن يقوموا بجريمة عندما يشعرون أن لعبتهم قد خابت، كما أن السرعة مهمة لأكسوشي من أجل نقله إلى المستشفى في أوكساكا، عاصمة المحافظة، حيث يرغب بيدرو بنقل كل ما جرى إلى الشرطة، وكذلك بتحرك فوري لحماية القبور، ومن البديهي إخبار وإعلام المعهد الوطني للآثار عن هذا الاكتشاف.

وفي الساعة العاشرة صباحاً، وصلوا إلى سان جوزيه، وبعد ربع ساعة، كانت سيارة الجيب التي امتلأت بركابها تنطلق إلى أوكساكا، عدا البرتو فقط الذي بقي في البيت، فقد كان متعباً جداً، لدرجة أنه نام وغفا على منضدة المطبخ عند نينا.

16: كنز قبور الزابوبتك

بعد يومين من الصدام مع لصوص القبر، جاء أيضاً الخال بيبا إلى سان جوزيه، حيث كان بيدرو قد أرسل له نداء هاتفياً أن حالة أكوشي الصحية قد أصبحت جيدة، والعجوز كان إلى جانبه في المستشفى، وأجريت له عملية جراحية فورية، استخرجت فيها رصاصة من عظام الحوض. أما مقبرة الأرواح، فقد تمت حراستها بواسطة عسكريين، فيما أودع الفريدو واللص في السجن بأنتضار محاكمتهم.

وبعد نصف ساعة من توقف سيارة الخال بيبا في حديقة بيت المعلم، أطلق منبه سيارته مرة أخرى، وكان بيدرو قد استعجل حضور الدكتور أورتيز الذي جاء مباشرة من المعهد الوطني للآثار، والذي كان مكلفاً بفحص القبور المكتشفة حديثاً، وقد حيا الرجال بعضهم قلبياً، وقبل أن يجلسوا على مائدة الطعام، اتفقوا على التحرك غداً باتجاه تولاكوستلان.

والآن فقد تم التوصل إلى الهدف، وصار بالإمكان بدء العمل. وقد نصب الدكتور أورتيز خيمة بالقرب من قبور الأرواح، وكانت علب وصناديق فارغة جاهزة من أجل تولي مهمة الشحن الفوري وبعناية شديدة للقى الأثرية النفيسة، وكانت الغرفة الأمامية قد تم إفراغها فعلاً، وتم العثور على أوعية زابوتيكية، وفي أحد الأركان وفوق المدخل المسيج المؤدي إلى المقبرة الحقيقية، كان هناك تمثالاً من الفخار الأسود، وهو يمثل آلهة الذرة الزابوتيكية بيتاو كوزوبي، وهو يحمل حلية نحاسية، ومن ريش طير كويتسال، وأقراط وحلي أخرى منها ما يوضع على الصدر على شكل قناع صغير مع أجراس. وعرض الدكتور أورتيز التمثال على البرتو، وأوضح له التفاصيل.

" من هم يا ترى أهم آلهة الأزتيك ..؟ ".

" كما نعلم إلى حد اليوم، أنهم كانوا يقدسون آلهة المطر، وآلهة الأرض على هيئة نمر، وآلهة الذرة الذي تراه الآن أمامك، وإذا أردنا إيضاح كافة الآلهة الجانبية (غير الرئيسية) التي عند الأزتيك وعند الزابوتيك والمايا في الجنوب فهذا سيكون كثيراً عليك ".

ثم حلت لحظة توتر: حيث بدأ الدكتور أورتيز فحص الحجارات الأولى بحذر على جدار المدخل، وهو لم يرفعها من مكانها، ولكنه اشر عليها بمسمار من حديد. ولا ينبغي أن تسقط ذرة تراب واحدة على أرضية المقبرة، والبرتو كان يبدي أشد الاهتمام بكل شيئ، والخال وبيدرو وأيضاً كارلوس، كما تطلع الهنود بتوتر على هذه الجدران القديمة، ولم يكن أحد يتحدث كلمة واحدة بصوت مرتفع، كان الجميع في سكون، والأمر يبدو وكأن مشهداً على جبل مونت البان في عصر الميكستيك عندما كانوا يدفنون موتاهم مع الذهب والفضة في المقابر الفاخرة. وكان القرطان الذهبيان، قد بعثا على الظن بأن حتى القبور قد استولى عليها الميكستيك لاحقاً من الزابوتيك. وكان المحيطون بالدكتور كورتيز من الحضور يفعلون مثله، عندما كان ينهض بين الحين والآخر ليمط قدميه، وكان الكشف عن القبر قد أمتد وقتاً طويلاً جداً، وكانت نصف القرفصة هو الوضع الذي كان عليه أثناء قيامه بعمله.

انطلقت آهة من الموجودين عندما بدأت حجرة كبيرة بالزحزحة ..

" لحظة " قال الدكتور أورتيز

" لقد تمكنا منه " ثم بدأ بتحريك الحجر ورفعه بكل حذر وسحبه إلى الخارج. وكان على البرتو ويا للسخرية، أن يتذكر كيف خلعوا له مرة أحد أسنانه، وبغتة كانت الحجارة قد أصبحت خارج مستوى الجدار، كما أخرجوا له مرة أحد أسنانه من فمه، وترك أخراج ثغرة وثقب في الجدار.

" المصباح اليدوي ..! " أمر الدكتور أورتيز .

لقد كان أول من دخل وشاهد القبر، ولكنه لماذا لا يقول شيئاً، فكر هكذا البرتو، كما أن الخال بدأ يفقد هدوءه.

" ماذا هناك يا دكتور ..؟ هل القبر فارغ ..؟ هل ما زلت تبحث ..؟ "

لم يجب الدكتور أورتيز، ولكنه أشار يرفع يده، ثم بدا وكأن التوتر قد بلغ ذروته، أعطى المصبح اليدوي إلى الخال، ثم بحركة يد منه، دعا الخال لإلقاء نظرة من خلال الثقب.

" قل لي يا خال ماذا ترى ..؟ " قال البرتو برجاء.

وبعد برهة دمدم الخال " جميل جداً، إنني أشاهد كومة من العظام القديمة وتماثيل فخارية، أوعية فخارية التي لابد أنها تحتوي على مواد غذائية من أجل الرحلة في العالم السفلي، وها يلمع شيئ ما هنا، ربما أنه ذهب أو فضة ..! ثم شيئ آخر، أوه أن الجدران هنا حمراء، أحمر بديع وعليه تماثيل بارزة لأشخاص ".

واستمر الخال يتطلع ويطلق الآه والأوه، متعلقاً بثغرة الجدار. وبيدرو الذي لم يكن قد اقحم نفسه قال:" دع الآخرين يشاهدون أيضاً شيئاً ما، أو على الأقل دع الدكتور أورتيز يواصل عمله ".

وبصعوبة أستطاع الخال أن يقتلع نفسه، وكان بوده لو أنه استطاع أن يطيل النظر إلى المقبرة الكنز، ولكنه بالفعل كان كل واحد من الحضور يود لو أنه ألقى نظرة، والبرتو كانت له حصته في النظر، ولكنه شاهد\ شيئاً بين العظام يلمع بلون أخضر براق، أترى هذه مجرد خيال (فنتازيا) أم ترى هناك بين العظام حقاً رقد لعبة حجرية صغيرة من اليادا ..؟
(اليادا حجر أخضر اللون ثمين يستخدم كحلى، لم نجد ما يقابله في اللغة العربية ـ المترجم)

طلب الدكتور أورتيز من الجميع أن يدعوه لوحده، فهو كان يريد أن يزيح بهدوء بقايا الجدار الذي يقف حاجزاً بينهم وبين غرفة القبر.

" إنني فقط أحتاج إلى شخص نشيط يساعدني في إبعاد الحجارة وتنظيف المكان ".

وقد تمكن البرتو من الحصول على المهمة، لأنه كان أنحف الجميع، ولم يكن يشغل حيزاً واسعاً. وبدأ الاثنان العمل بهمة، وكانت مهمة البرتو هي تصفيف الحجارة من أنقاض الجدار التي نقلت واحدة أثر الأخرى إلى الخارج حيث ضوء الشمس، وفصلت عن الملاط، ورصفت الواحدة بجنب الأخرى بعناية.

وفي خلال ذلك، جلس بيدرو وكارلوس والخال بالقرب من مدخل القبر في الهواء الطلق، يتحادثون عن الآثار المرتقبة، وكان كل واحد منهم يود أن يشاهد شيئاً معيناً، والخال أكد بأن

هناك أجداث 4 موتى على الأقل في القبر، ولكن العظام ترقد بدون ترتيب، بل هي متداخلة مع بعضها بحيث أن المرء لا يمكن في هذه اللحظة أن يقرر بشأنه شيئاً.

" إنه شيئ غريب في تقاليد الزابوتيك والمكستيك في دفنهم لموتاهم مرتين، إذ لا يدفن الميت بصورة نهائية إلا عندما تهترأ الجثة ويقع اللحم عن العظم، والدفن على جبل مونت البان. كما وجدت أن بعض الأطراف ناقصة، ولا شك أنهم عند إعادة الدفن قد نسوها أو أنهم لم يهتموا بها بصورة دقيقة ".

"ثم أطلق الخال شتيمة وقال " بيدرو، إنك تتحدث هنا عن الآجر والطابوق، دعنا عن هذا وأختر لنا موضوع آخر، إذا لم تكن لك مهابة مع الموتى "

بدأ بيدرو بالدفاع عن موقفه فقال:

" وأخيراً فإن كل شيئ قد حصل كما أقول أنا، والمعبد لم يكن بالنسبة للهنود أمراً مفزعاً، بل أنه كان أمراً اعتياديا، وبأن البشر (حسب اعتقادهم) بعد موتهم، يعودون مرة أخرى من باطن الأرض ويهبطون على الأرض مرة أخرى ".

وفي غرفة القبر، كان كل شيئ قد أصبح هادئاً، وقطع بيدرو حديثه للحظة، وبدأ يتصنت مع الآخرين

" أظن بأنهم قد انتهوا " ونهض وتوجه إلى مدخل القبر، ونهض الآخرون في أثره، ولم يكن الدكتور كورتيز والبرتو في الغرفة الأولى، وكان الجدار قد أزيح بأكمله.

" ها .. البرتو، أين أنت ..؟ " هتف الخال وهو يعلم بالطبع أين يمكن أن يكون البرتو.

" أتسمح لنا بالنزول يا دكتور ..؟ ".

ومن العمق كان يسمع صوت طرق وحك، وهي نغمة الآثار بين.

" لا تقفوا في المدخل وتسدوا علينا القليل من الضياء ..! ".

" إذن لنجلس هنا وننتظر " قال بيدرو.

وبدون فائدة تجمعوا حول مدخل القبر، وفي البدء، خرج البرتو وكان غارقاً في عرقه والغبار، كان مرتبكاً وتحدث بجمل متقطعة " فكروا معي، أنهم حقاً موتي ميكستيك، وقد شاهدنا الذهب وكذلك النحاس، على الجدار هناك، صور تضم آلهة من العصر الزابوتيكي والألوان هي حمراء، صفراء، بنية. والموتى لهم ألوان حمراء على بقاياهم ".

" أعتقد بأننا فعلنا شيئاً مهماً، أيها السادة، إنه كان أمر مؤسف لو أن اللصوص قد وضعوا أيديهم على الأشياء الرائعة. وإذا لم أكن مخطئاً، فإن واحداً من جماجم الموتى الثلاثة يضم بقايا قناع ملصق بواسطة الصمغ، وكان علي أن أكون في غاية الحذر حتى لا يتساقط من خلال اللمس، ولهذا السبب فإني أرجو كم أن لا تدخلوا غرفة القبر، وأن يبقى كل شيئ كما هو، ونبدأ غداً بألتقاط الصور، وإذا أردتم مشاهدة شيئ أبقوا في الغرفة الجانبية ..! ".

والآن لم يعد البرتو يستطيع إخفاء السر الذي أكتشفه، فقال " أيها الخال، أتعلم بإنني رأيت تمثالاً صغيراً من اليادا، إنها تبدو مثل لعبة الأولميك، تلك التي شاهدتها في الغرفة الخاصة في بيتك ".

" غير ممكن " قال الخال وأستطر " لا شك أنك شعرت بالدهشة، فإن التمثال الذي في بيتي أقدم بخمسمائة عام عن جميع الأشياء الموجودة في هذا القبر ".

وعندما أظهر الدكتور أورتيز بنفسه التمثال الذي عثروا عليه في القبر (لعبة يادا) ، أضطر الخال إلى التسليم فعلاً إلى ما شاهده، وقال أن البرتو كان مصيباً في قوله، وقام الدكتور أورتيز برفع التمثال عالياً وقال:

" هذا هو الاكتشاف الغريب، إذ أن جميع المعروضات الأخرى التي أطلعت عليها إلى حد الآن، لم تكن غريبة علينا، وبالإمكان مقارنتها مع القبور الأخرى، وأنا أستطيع أن أتصور بأن اليكستيك كانوا هم الذين ابتكروا مثل هذه الألعاب الفنية من حجر اليادا، أو ربما (وهذا احتمال) قد أخذوه من تجار من أنحاء خليج المكسيك، ربما كانت هذه القطعة كشيئ ثمين من ممتلكات هذه العائلة المتوفاة في ذلك العصر القديم، ودفنت معها، وأنتم تعلمون بأن الهنود في جنوب المكسيك وغواتيمالا حتى في يومنا هذا عندما يحرقون نار التضحية يضعون فيها أصنام المايا القديمة المصنوعة من اليادا، والآن بأمكانكم جميعاً إلقاء نظرة على غرفة القبر ".

وقد أمر الدكتور كورتيز بأن تعلق أكياس القنب (التي تضم بعض اللقى) أمام غرفة القبر من أجل ملاحظتها جيداً، ثم أستدعى الملازم أمامه، وطلب إليه أن يهتم بوضع الحراسة ويتولى أمر قيادتها، وشدد عليه بأن لا يدع أحداً يدخل القبر وبمضاعفة الحراسة ليلاً. والمرء لا يعلم فيما إذا كان لسراق القبور أعواناً آخرين.

" غداً نبدأ بمعاينة دقيقة، والآن فإني أقترح بأن نذهب إلى خيمتي ونشرب قدحاً من التكيلا (مشروب كحولي مكسيكي ـ المترجم) نخب بطل اليوم، الذي أكتشف التمثال / اللعبة المصنوع من اليادا، آثاري المستقبل البرتو ".

أبتسم البرتو وقد أحمر وجهه خجلاً، وصاح الرجال " يعيش "

ثم قام كارلوس بحملة داخل الخيمة، فيما بادر الدكتور أورتيز إلى صب التكيلا الصافية النقية التي تصنع من ثمرة الصبير في الأقداح، وصب قدحاً لألبرتو أيضاً، وألقى الخال بيبا كلمة قال فيها:

" وأنا أيضاً مع أن يتعلم البرتو كل شيئ عن المكسيك، وبإن عليه أن يحتفظ بما وجده لنفسه ".

أضاف الدكتور كورتيز قائلاً : " إذا كنت تقصدون بالنسبة لي، فإن البرتو ليس طفلاً، ونحن نشرب بصحته ونخب عملنا المشترك ".

رفع الجميع أقداحهم وحتى كارلوس الذي كان قد أقسم على ترك المشروب، فألقى بالمشروب الحاد في بلعومه. ووضع الدكتور كورتيز قدحاً آخر على المنضدة، وهز البرتو في يده قائلاً:

" أتمنى لك بأن تتعرف على المكسيك بدقة، وأن تستطيع أن تواصل عمل خالك وبنفس الأهداف التي هو عليها، أو ربما أنك تريد أن تكون ةباحثاً في التاريخ القديم مثلي ..؟ ".

نهض البرتو خجلاً أمام الآثاريين، وكانت يده اليسرى في جيبه، كأنه يبحث عن شيئ، وأخيراً وجد ما كان يبحث عنه: أقراط الرجل العجوز الذهبية، وكانت ما تزال في جيبه، وهو الآن ينظر إليها بدقة وبعيون خبيرة، فقد كانت حقاً قطعة فنية جميلة.

بدون تردد وبحزم أعطاها إلى الدكتور كورتيز.

" هنا، السيد الدكتور، إنها يجب أن تكون في المتحف حتى تستطيع المكسيك أن تفخر بها ".

17 : جدول التسلسل التاريخي

حسب الأبحاث الآثارية لعام 1960

حضارة منطقة الهضبة	التاريخ	حضارة المايا
أول آثار لوجود البشر في هضبة المكسيك، والتحول من البداوة إلى الزراعة: الذرة	حوالي 9000 ق.م	
	حوالي 2500 ق.م	أقدم مدينة في منطقة المايا قد تأسست تحت حكم يوكاتان على السواحل الشمالية
أقدم هرم في الهضبة	2000 ق.م	
هرم كويكويلكو، أركايكوم	1000 ق.م	أول آثار للأولميك
ظهور الأولميك، أقدم آثار الأولميك	500 ق.م	
الأولميك في مونت بلان، تأسيس تيوتيهواكان	36 ميلادية	أول أعمال رسم للأولميك
بناء هرم الشمس في تيوتيهواكان	200 م	
	320 م	أقدم تاريخ للرسوم المايا وذروة ازدهار حضارة المايا
ظهور التولتيك	600 م	
أفول تيوتيهواكان	800 م	
الازدهار الرئيسي	100 ـ 500 م	

للزابوتيك		
سيطرة التولتيك على الهضبة	800 - 1000م	ظهور المايا في شيشن/ إيزا أزدهار جديد للمايا مع نفوذ التولتيك
ازدهار الثقافة الميكستيكية	1200 - 1440 1100 - 1500	
ظهور الحضارة الأزتيكية	حوالي 1100	
تأسيس تينوشتيتلان	1390	
توسع دولة الأزتيك	بعد 1428	
وفاه موكتيسوما الثاني	1520	
احتلال تينوشتيتلان	1521	
	1546	احتلال بوكاتان وأنهيار الدولة التي استمرت حوالي 4000 سنة
	1697	احتلال الأسباني تارسايا في جزيرة بيتيني، وبذلك كان آخر وجود لاتيزا من بواكان.

18 : المصادر

1. Andrews, E. Wyllys: Lost City the Maya, New Orleans.

, Kaj,: Geschichte der Kultur, Zürich.غ2. Birket-Smith

3. Conte Corti, Egon Caesar: Die Tragödie eines Kaisers.

4. Comio, Lorenzo: Mystterios City of the Zapotecos Oaxaca.

5. Helfritz, Hans: Mexiko und Mittelamerika, Berlin

6. Van Loon, Hendrik Willem: The Story of America, New York

7. Marquina. Ignacio: Templo Mayor de Mexico, Mexico

8. Prescott, William: Die Eroberung Maxico, Berlin

9. Rio, Dr. Pablo Martinezdel: Official Guide: Tula, Mexico

10. Sahagun, Berna de: Historia general de las cosas de Nueva Espana, Mexico

11. Saurat, Denise: l,atlantide et le regne des Geants, Paris

12. Soustelle, Jacques; La vie quotidienne des Azteques, Paris

13. Ubbellohde Doering, Heinrich: Altmexicanische und Peruanische Malerei, Berlin

كان الفراغ من ترجمة هذا الكتاب

بـغداد المنـصورة

1993

Huitzilopochtli, der Gott der aufgehenden Sonne und des Krieges

هويتسيلوبوشتلي، إله الشمس الغاربة، والحرب

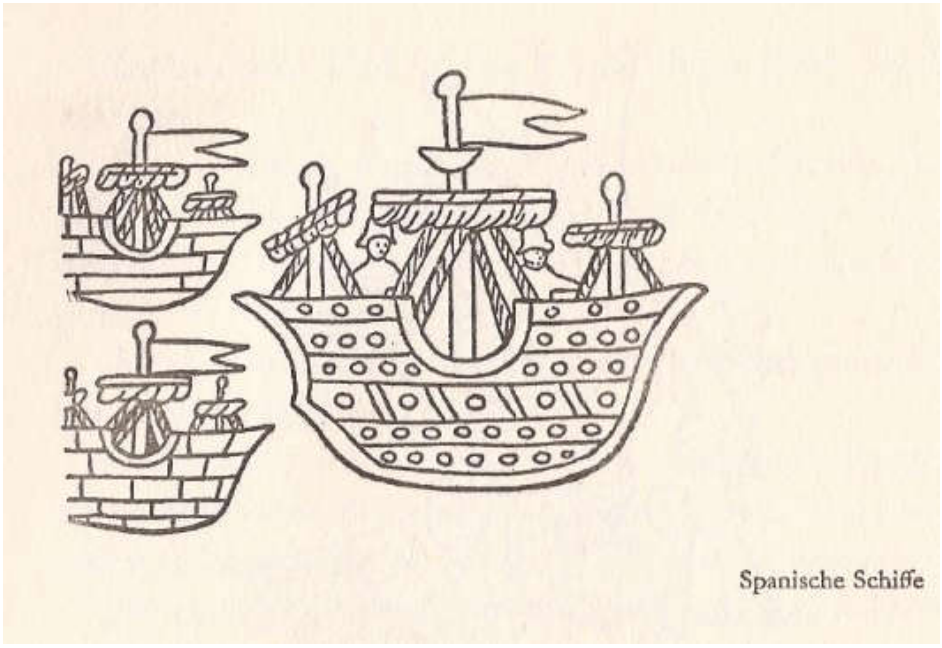

Spanische Schiffe

السفن الاسبانية

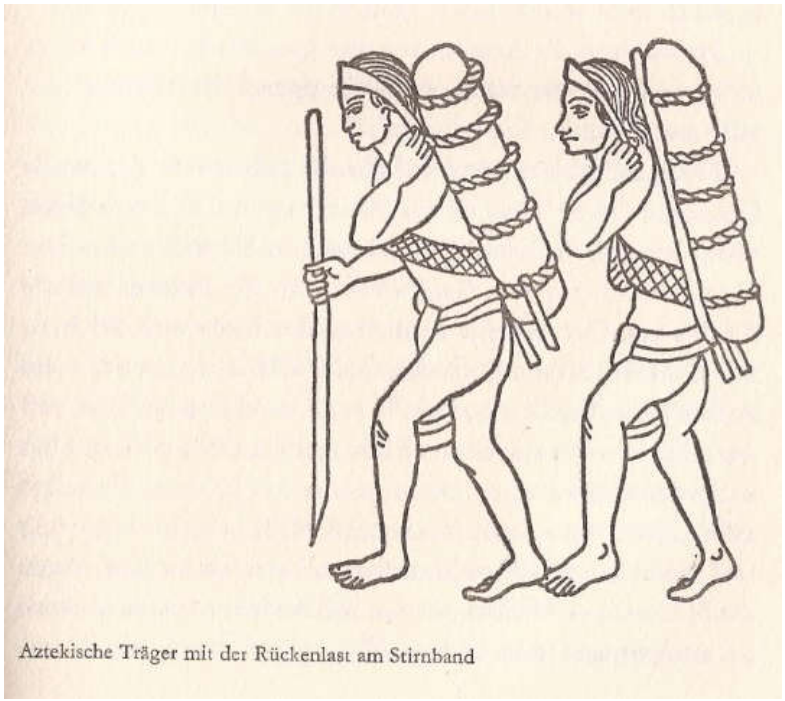

Aztekische Träger mit der Rückenlast am Stirnband

حمالون من الازتيك مع رباط على الجبين

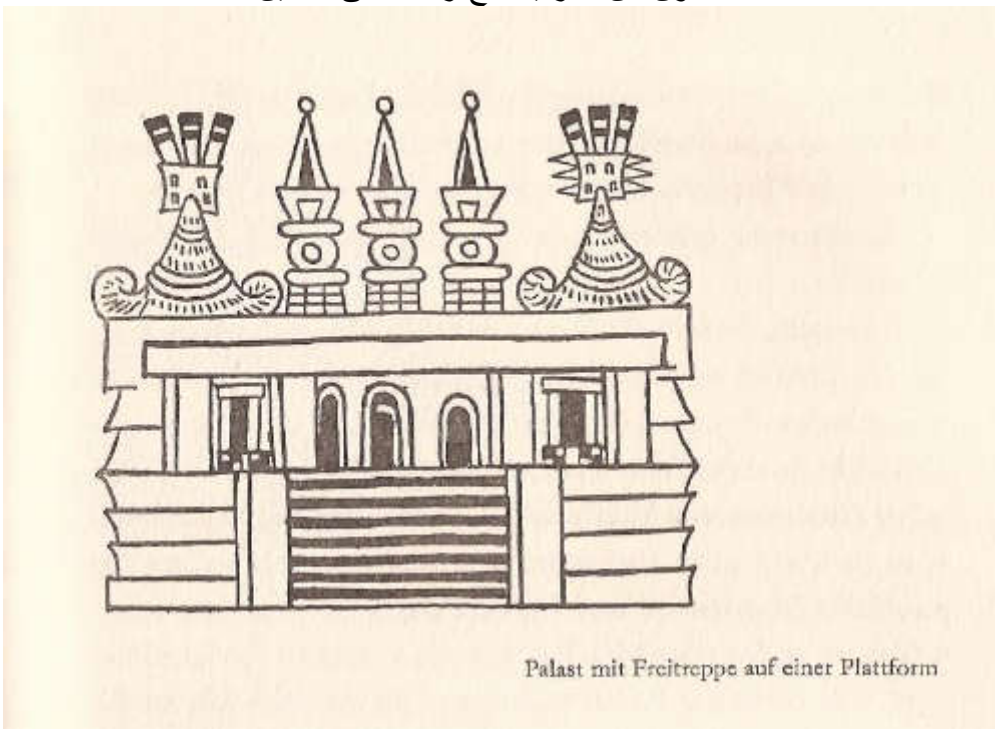

Palast mit Freitreppe auf einer Plattform

قصر مع سلالم إلى المنصة

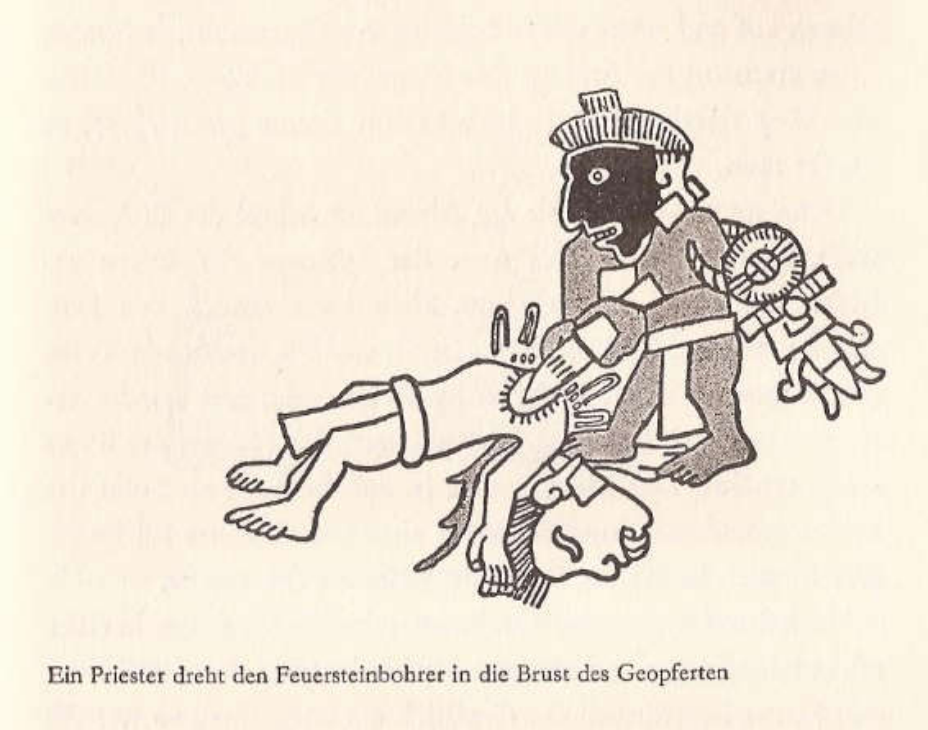

Ein Priester dreht den Feuersteinbohrer in die Brust des Geopferten

كاهن يحفر بحر صدر الضحية

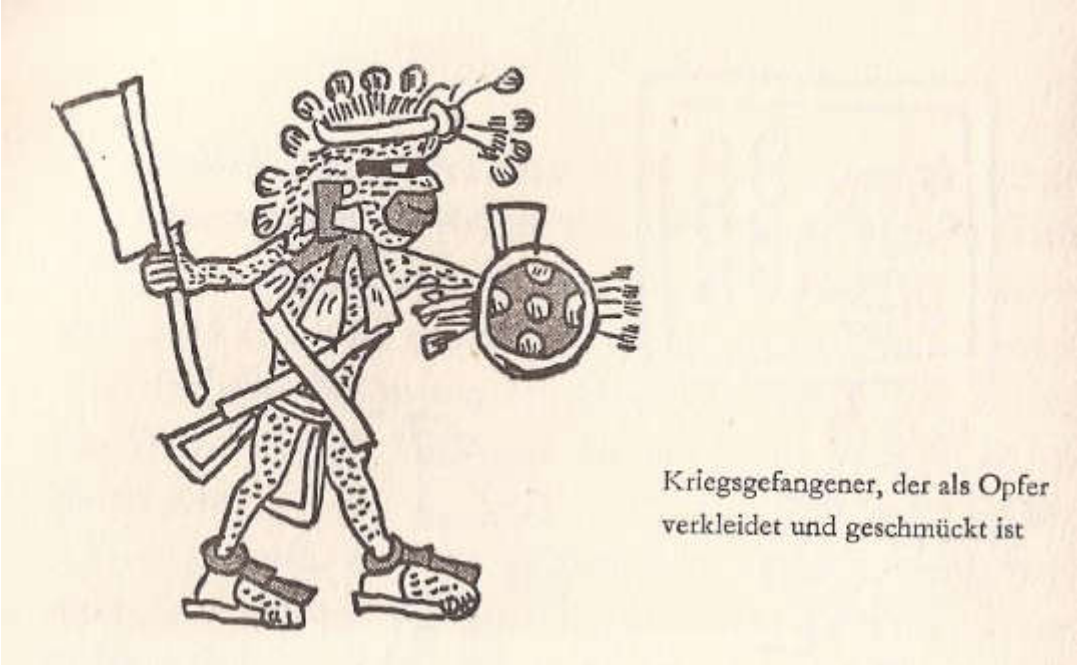

Kriegsgefangener, der als Opfer verkleidet und geschmückt ist

أسير حرب يرتدي ثياب وزينة مراسم التضحية

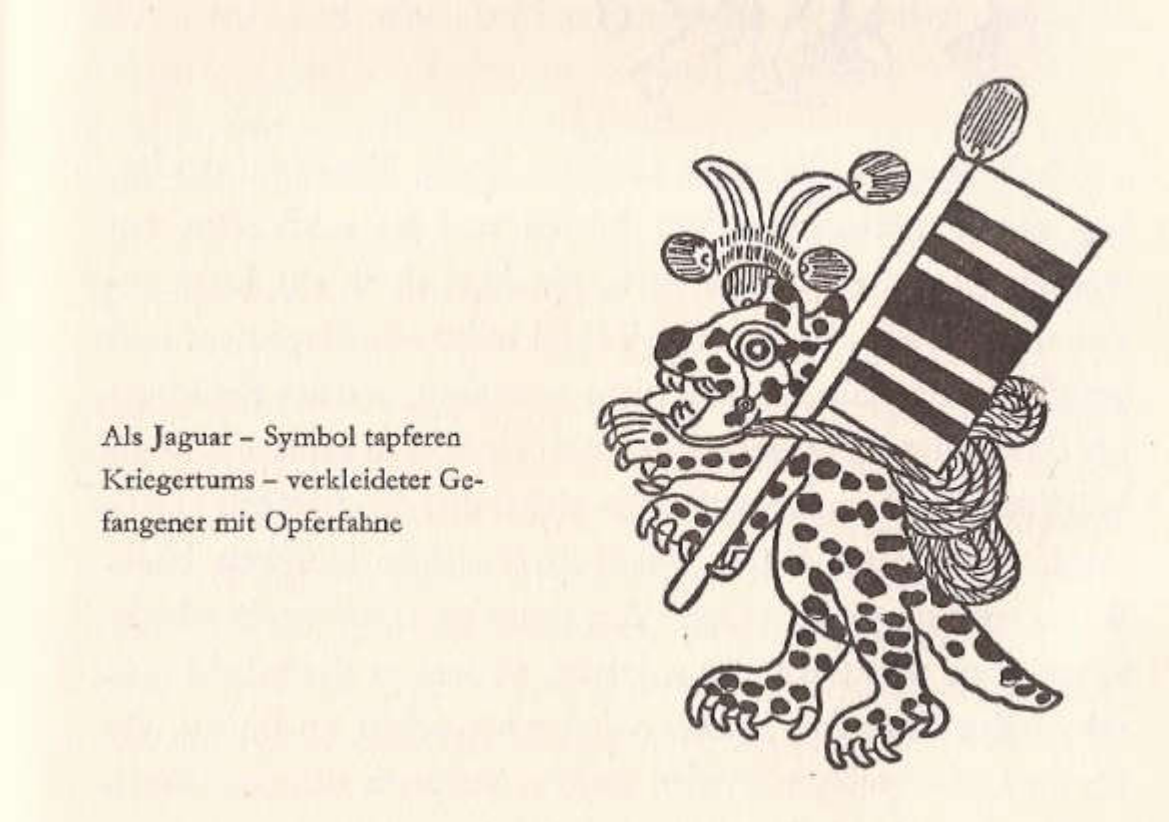

الظهور كفهد رمز لشجاعة المحارب مع راية التضحية

محارب أزتيكي يأسر عدواً

الملك مومكتسوماس الثاني

أزتيكي يرتدي ثياب وإشارات محترمة

Tlaskaltekische Krieger auf dem Marsch

محاربون تاسكالاتيون في المسيرة

Cortez und Marina werden von den Tlaskalteken begrüßt

كورتيس ومارينا يتلقون تحيات من التاسكيون

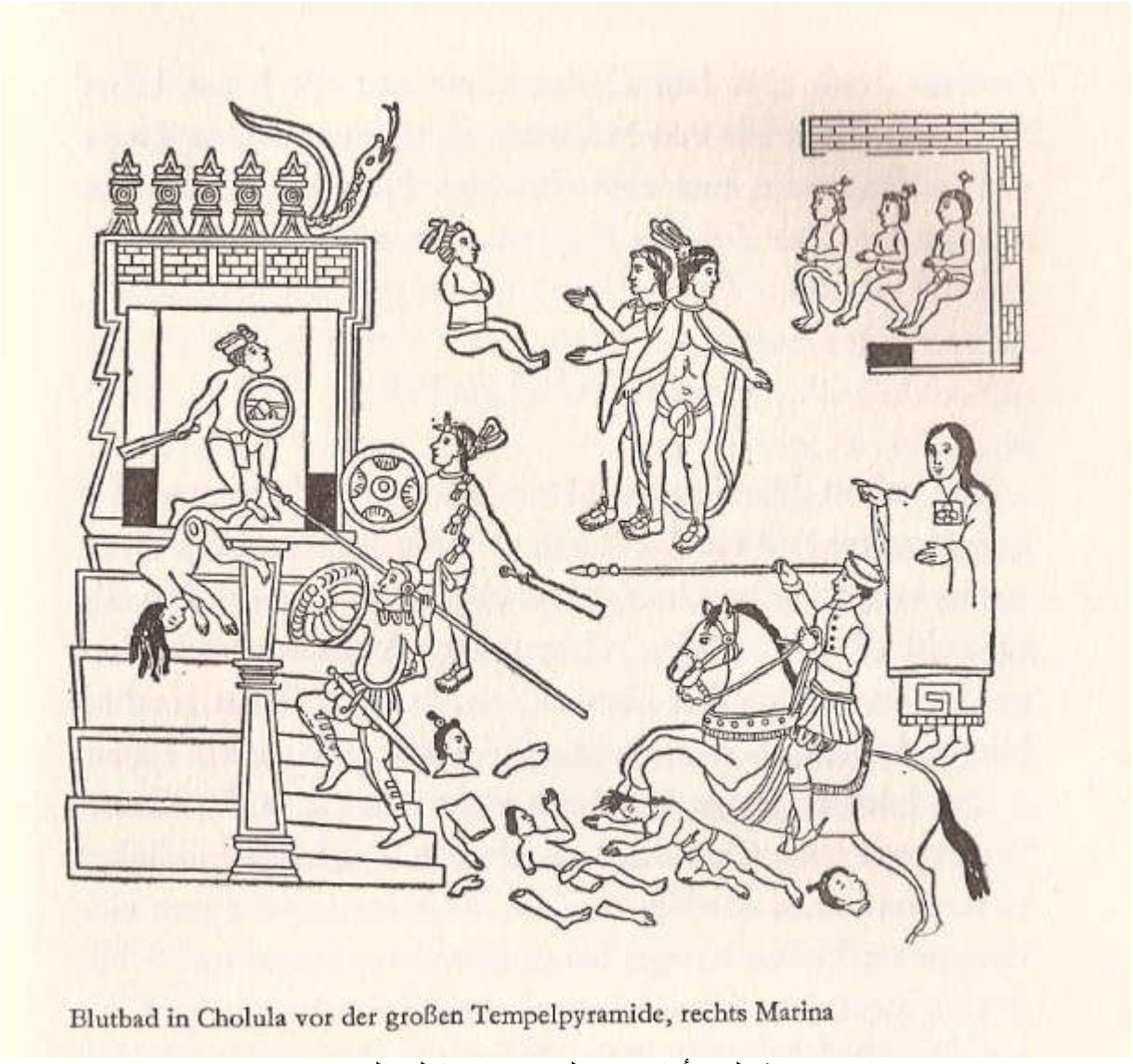

Blutbad in Cholula vor der großen Tempelpyramide, rechts Marina

حمام دم في شولولا أمام معبد الهرم، مارينا إلى اليمين

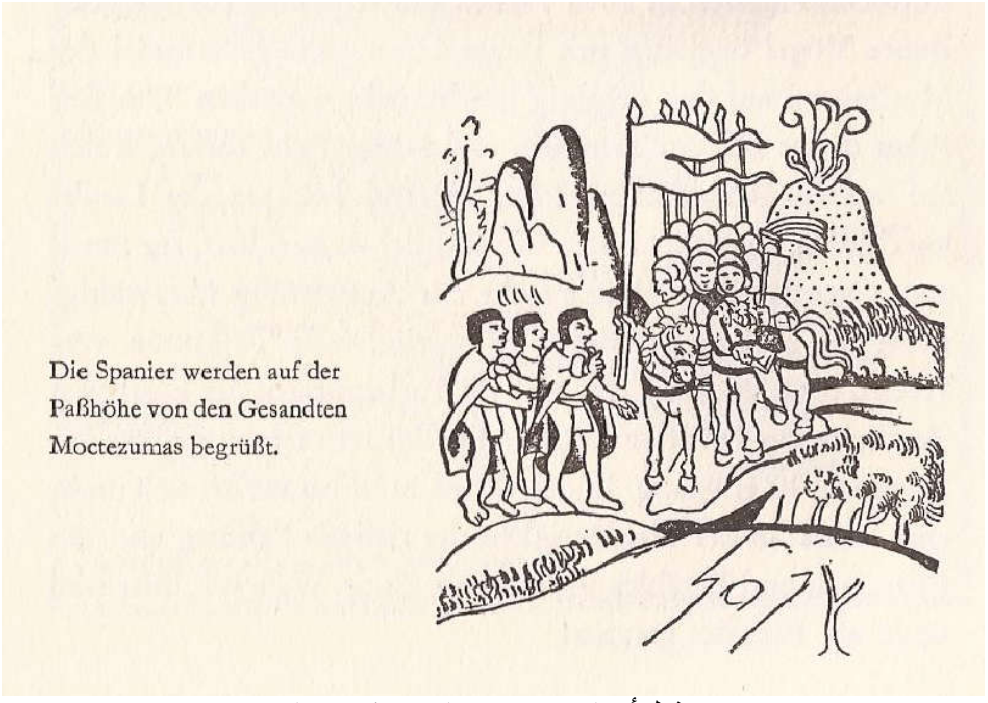

تحية للأسبان في مرتفعات موكتسوماس

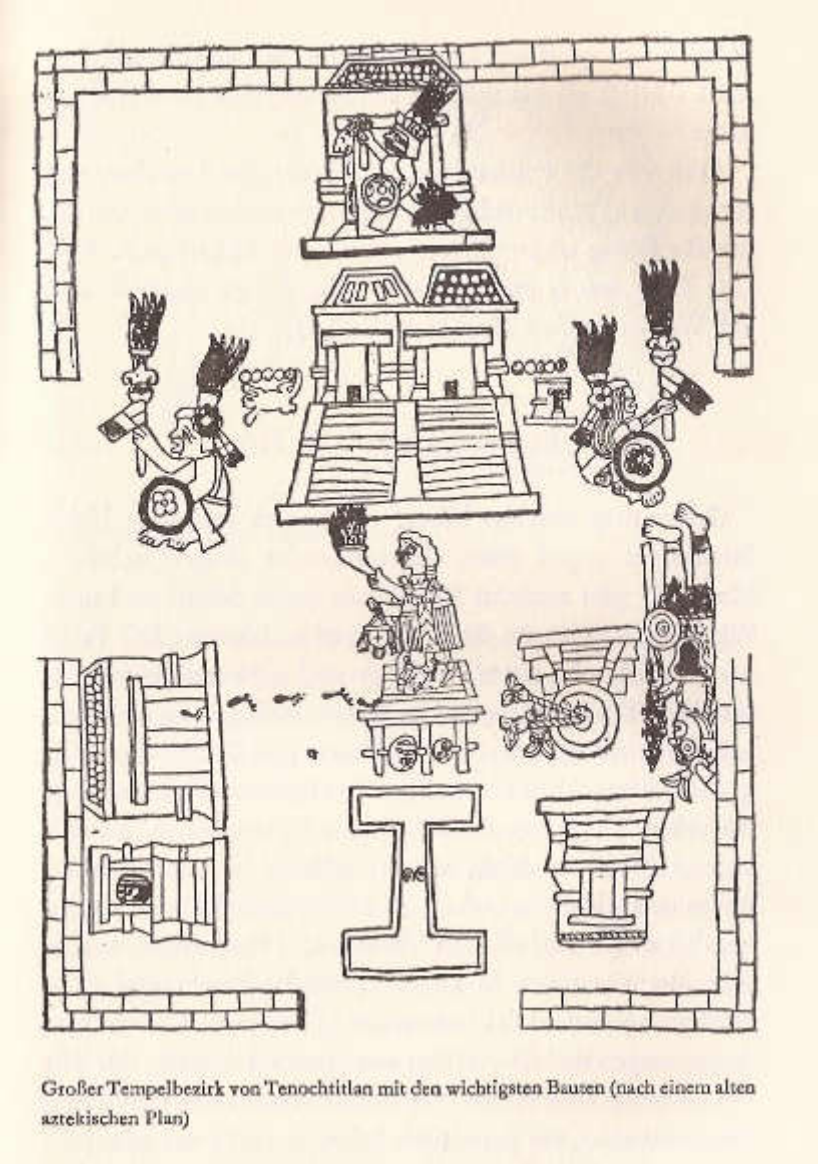

Großer Tempelbezirk von Tenochtitlan mit den wichtigsten Bauten (nach einem alten aztekischen Plan)

تحية على معبد تينوشيتلان مع أهم الغنائم

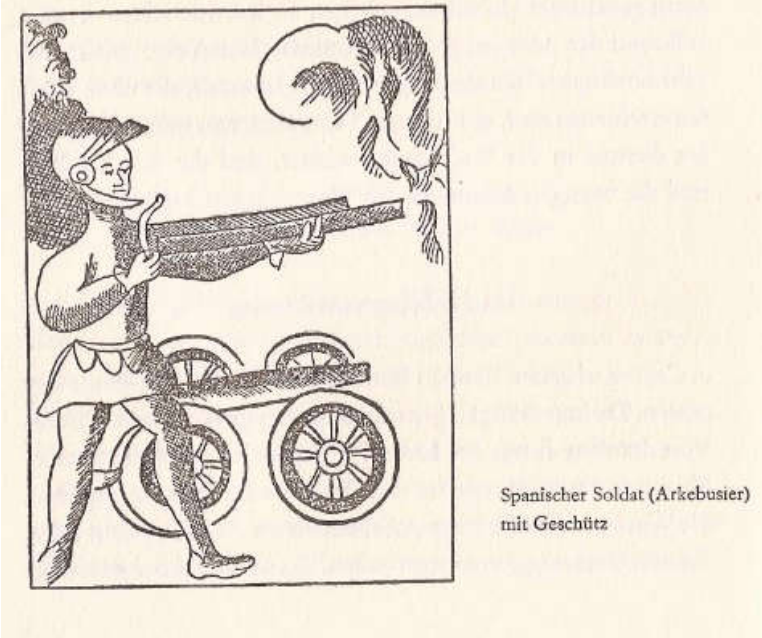

Spanischer Soldat (Arkebusier) mit Geschütz

جندي أسباني ومعه سلاحه

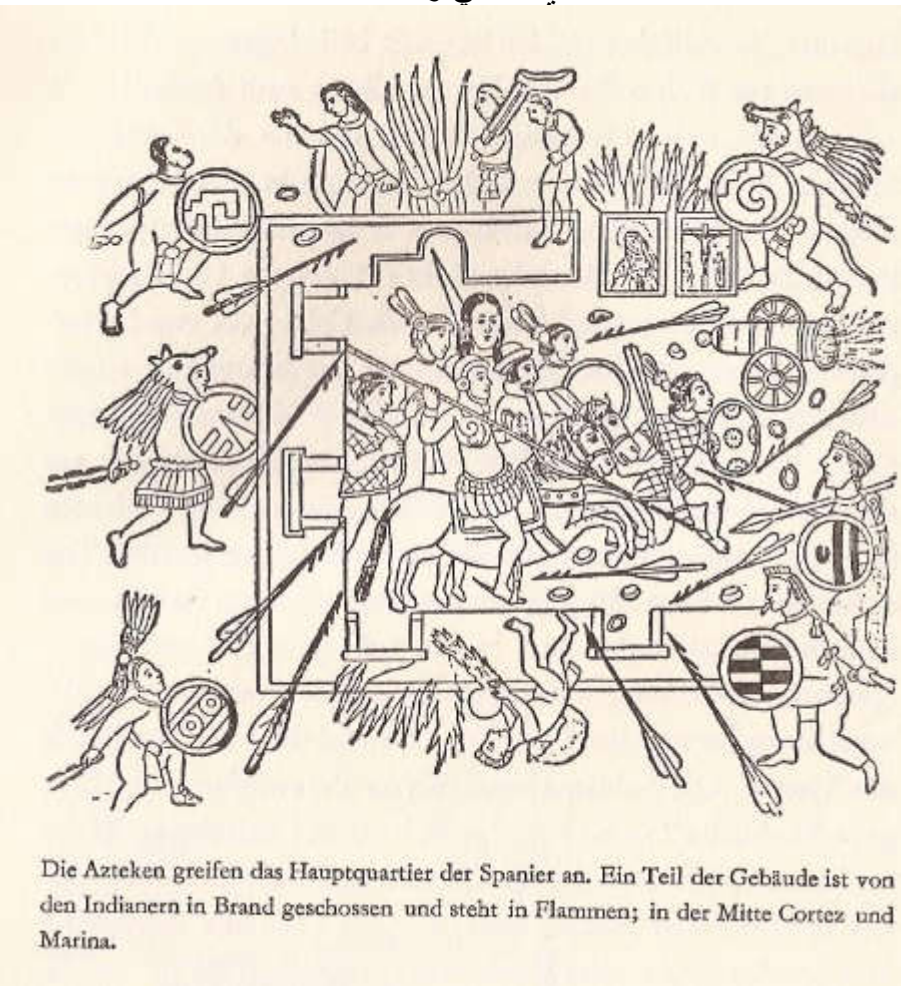

Die Azteken greifen das Hauptquartier der Spanier an. Ein Teil der Gebäude ist von den Indianern in Brand geschossen und steht in Flammen; in der Mitte Cortez und Marina.

الازتيكيون يهاجمون مقر قيادة الأسبان، وجزء من المبنى أضرم الهنود فيه النار ويتصاعد منه اللهب، وفي الوسط كورتيس ومارينا

موكتسوما الجريح ينقل إلى القصر

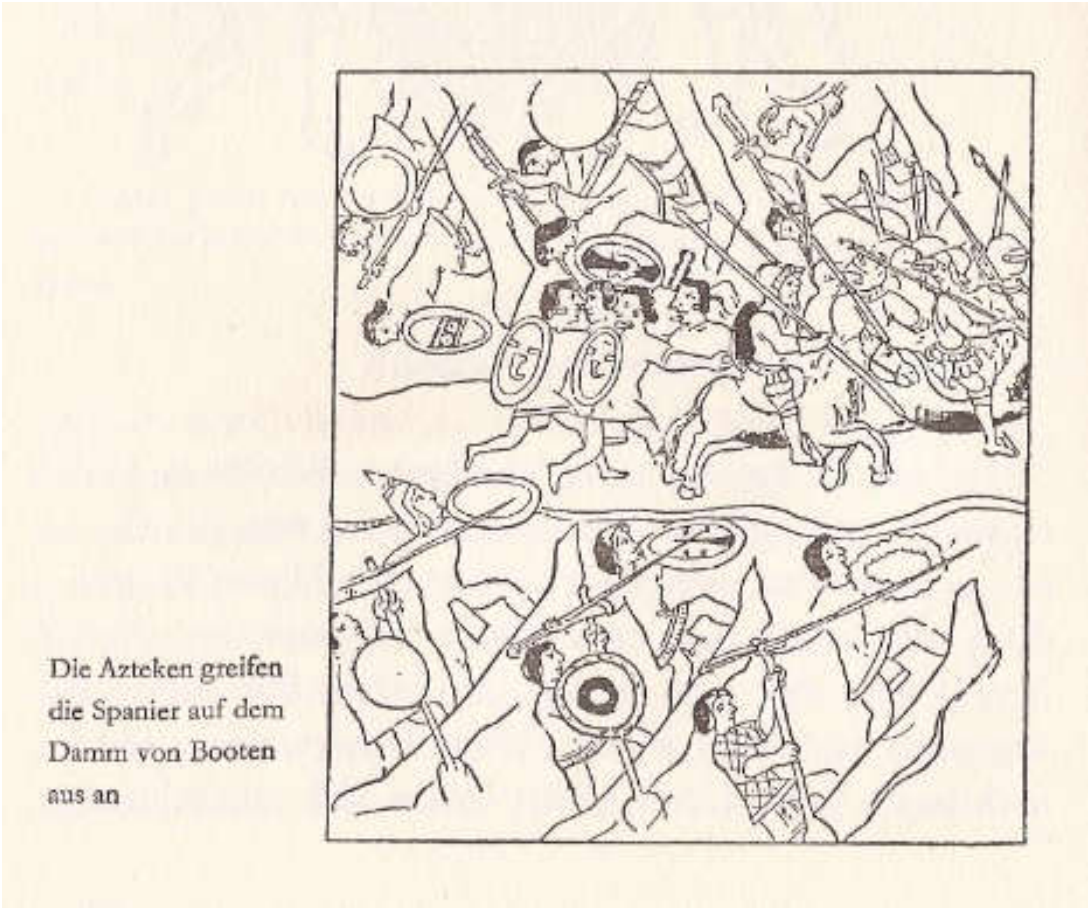

الأزتيكيون يهاجمون الأسبان

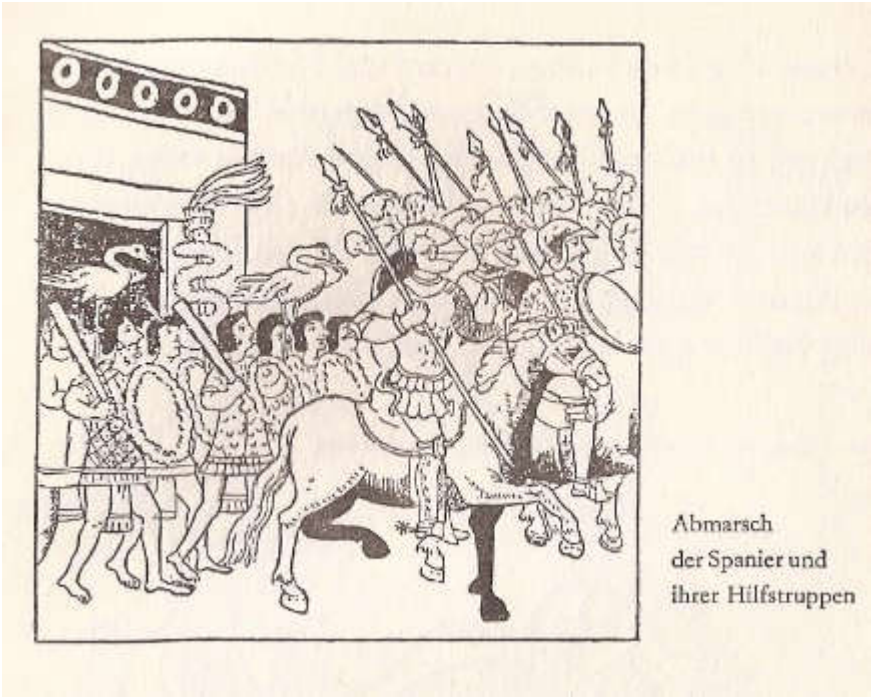

القوات الاسبانية في المسير

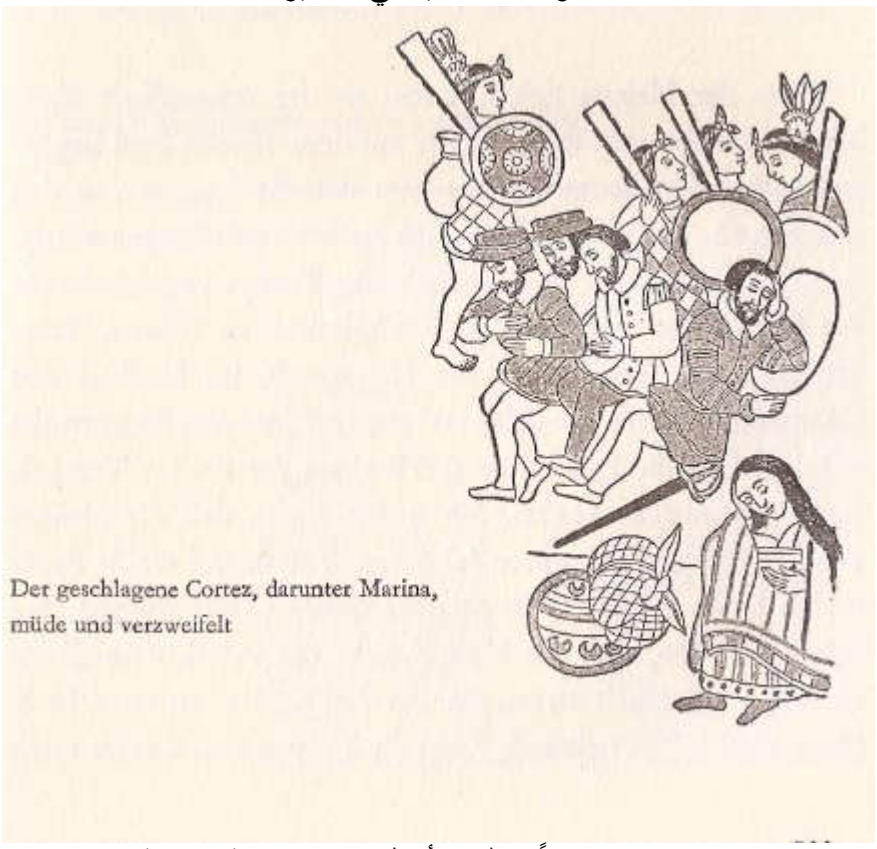

كورتيس مهزوماً، وإلى الأسفل مارينا متعبة ويائسة

Die fliehenden Spanier werden von den Azteken verfolgt

الاسبان المدحورون ويلاحقهم الأزتيك

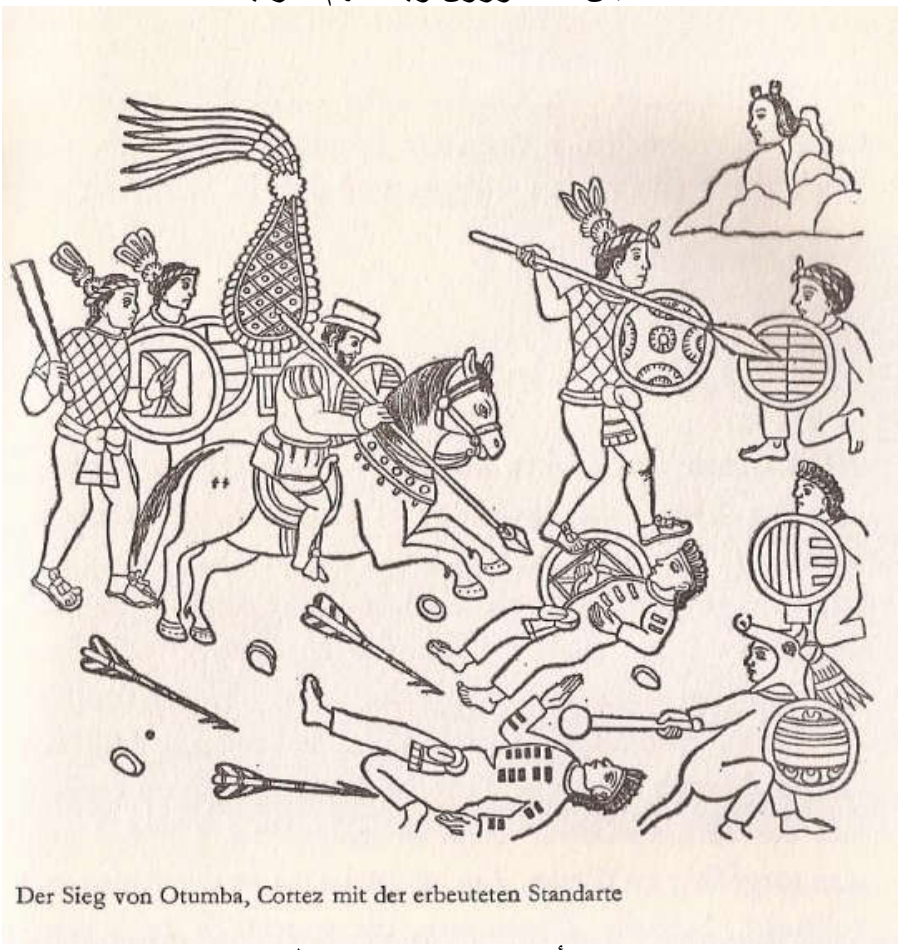

Der Sieg von Otumba, Cortez mit der erbeuteten Standarte

انتصار أوتومبا، كورتيس مع الغنائم

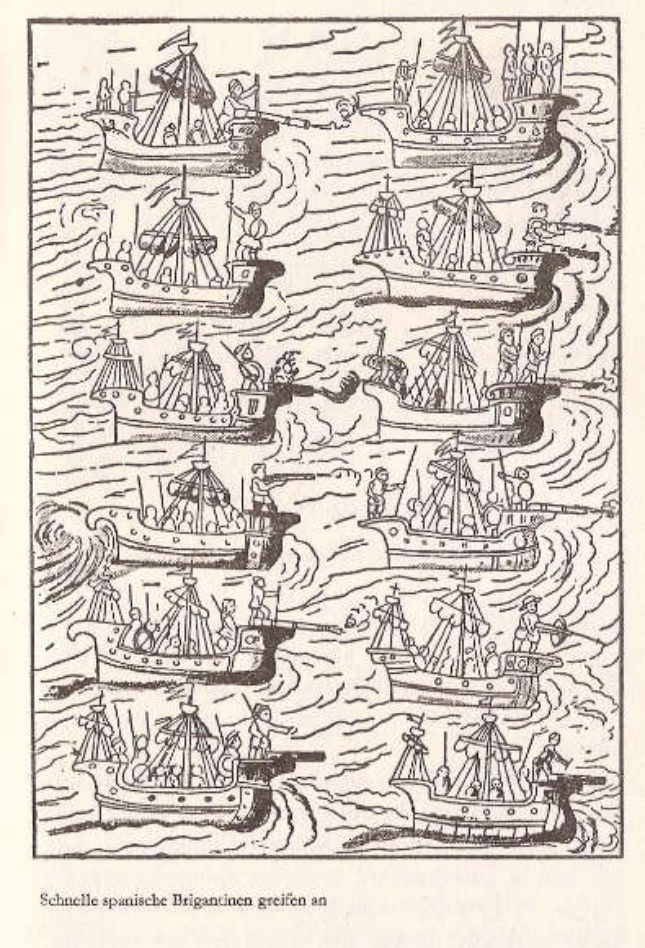

Schnelle spanische Brigantinen greifen an

السفن الاسبانية السريعة في الهجوم

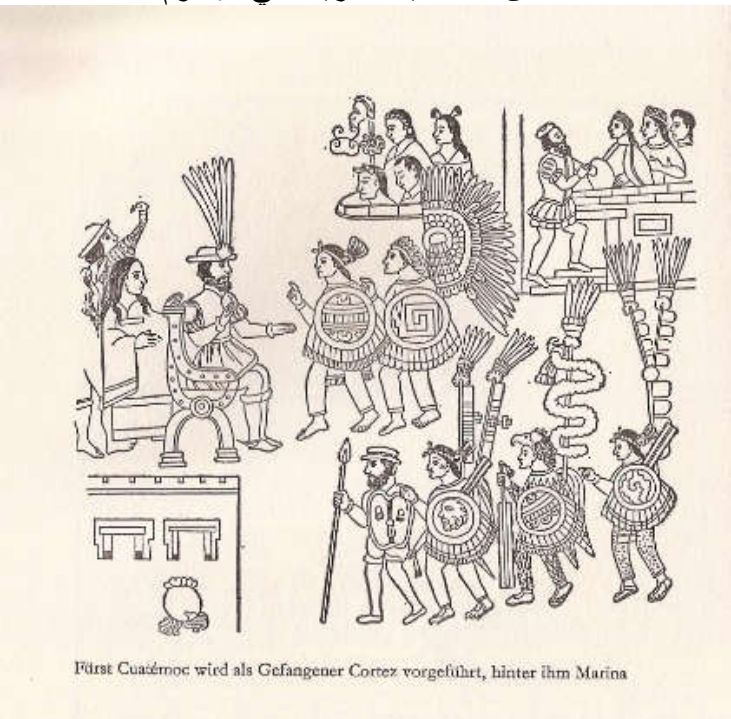

Fürst Cuaténoc wird als Gefangener Cortez vorgeführt, hinter ihm Marina

الأمير كاوتيموك اسيراً عند كورتيس وخلفه مارينا

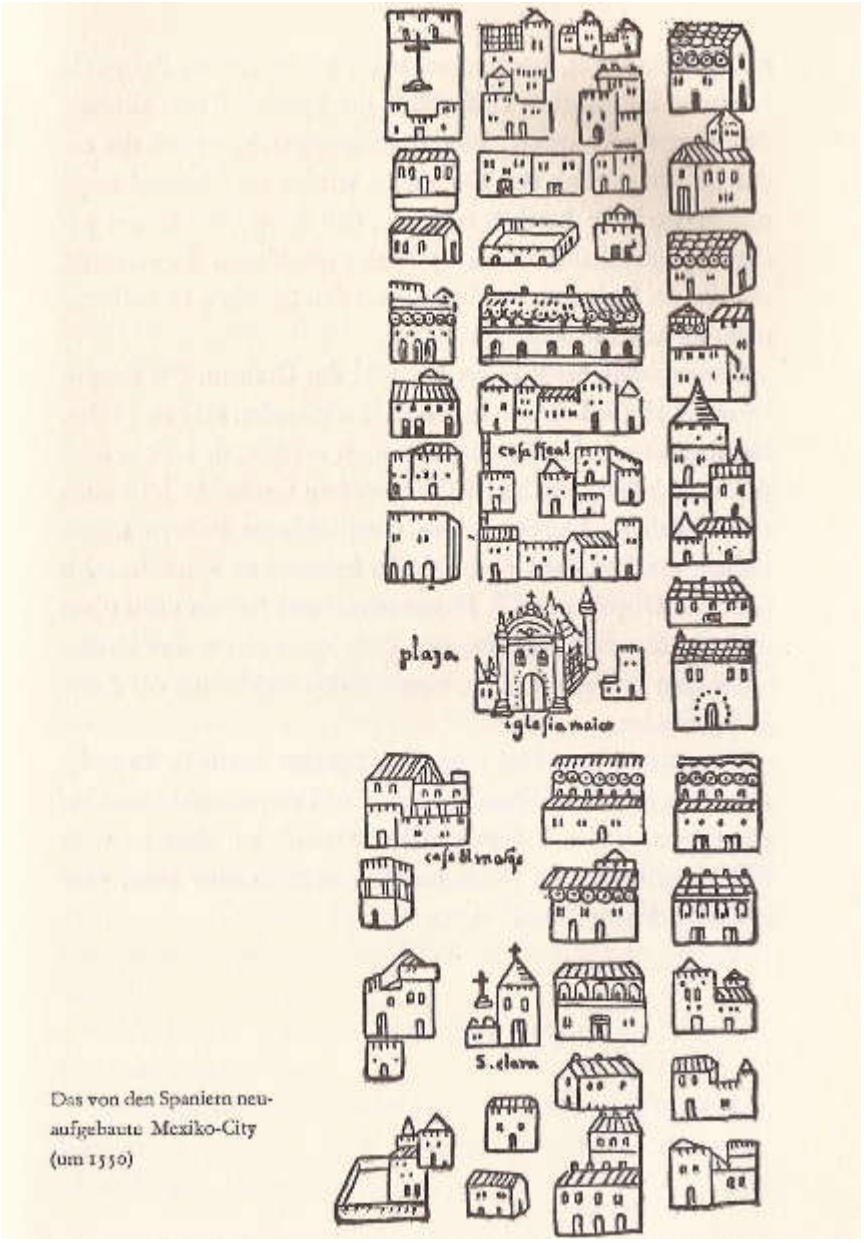

Das von den Spaniern neu-aufgebaute Mexiko-City (um 1550)

مدينة مكسيكو التي بناها الاسبان عام 1550

Der Gott Quetzalcoatl. In der Stirn trägt er als Zeichen der Kasteiung einen Dolch; aus dem entspringt eine Blüte, an der ein Kolibri saugt.

الإله كويتسالاكوتل

Säule aus Tula, toltekischen Krieger darstellend

نصب من تولا يرمز لمحارب

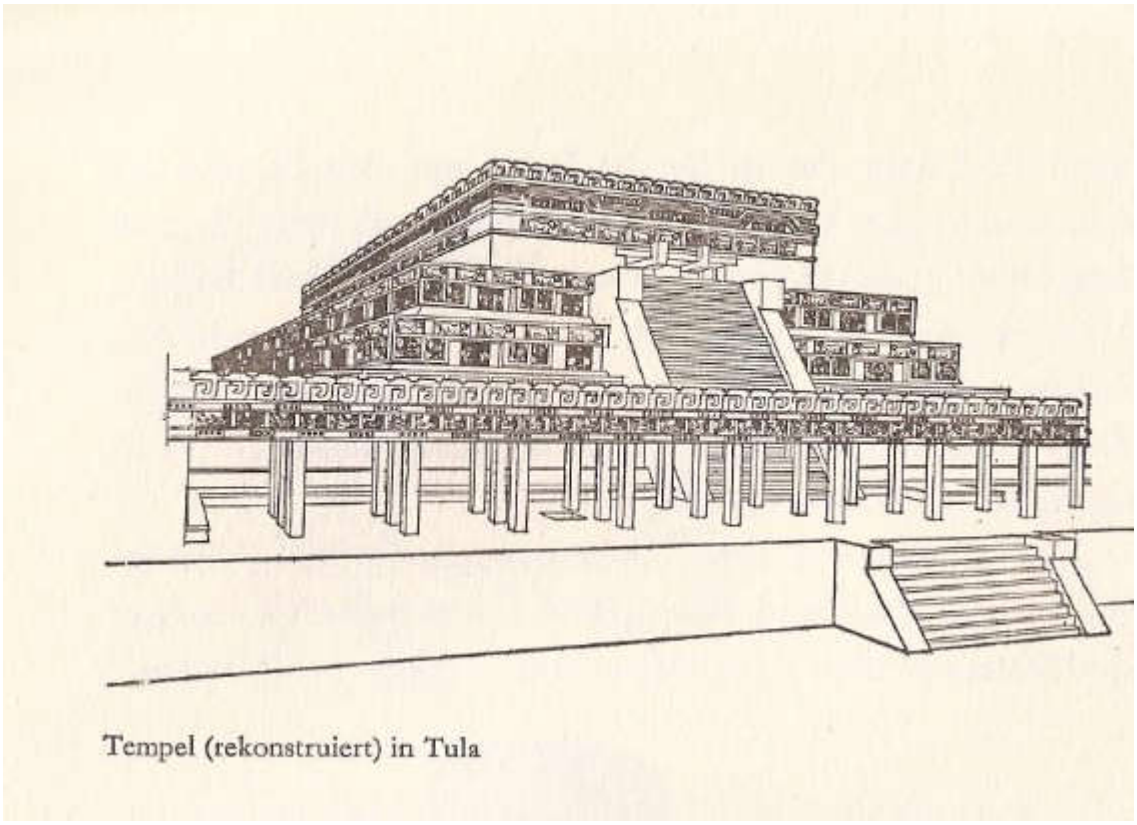

Tempel (rekonstruiert) in Tula

معبد في تولا

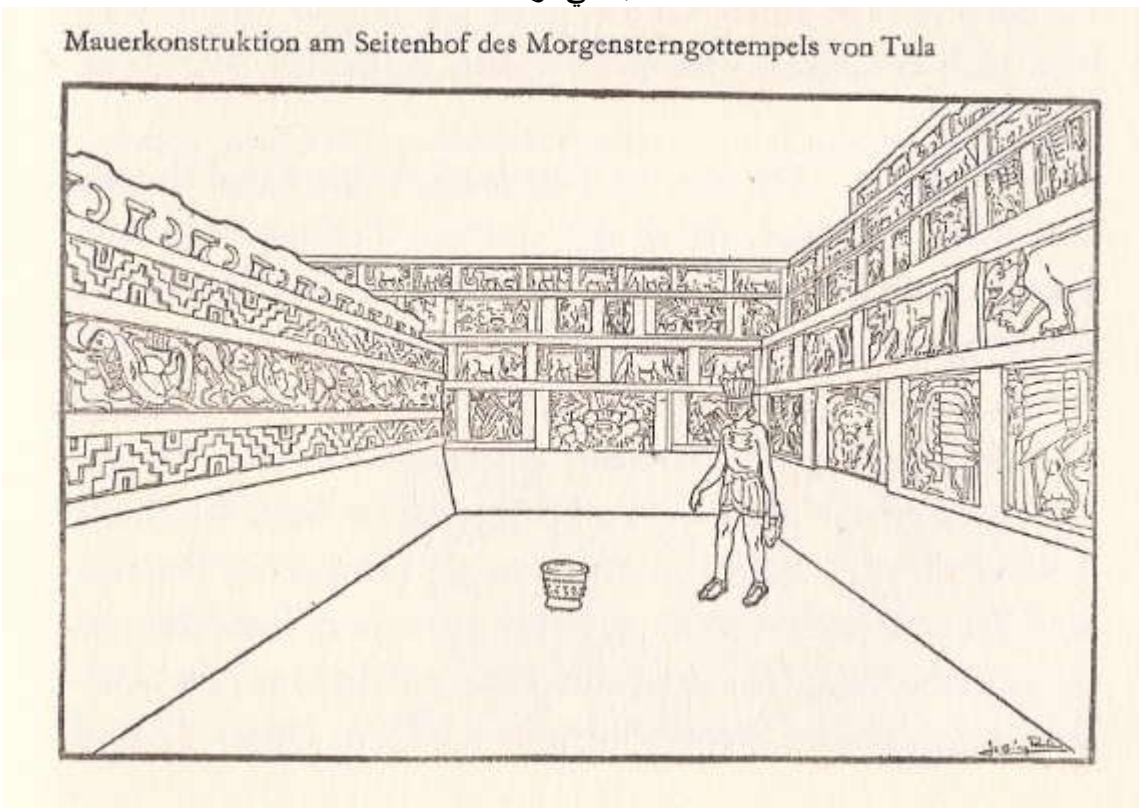

Mauerkonstruktion am Seitenhof des Morgensterngottempels von Tula

جدارية معبد في تولا

Krieger als Adler und Jaguar verkleidet, die beiden stärksten und angriffslustigsten Raubtiere Mexikos, daher auch religiöse Symbole für Licht und Dunkel, Himmel und Erde

محاربان يبدوان كنسر وفهد وهي من أقوى حيوانات مكسيكو وكرموز دينية للضياء والظلام، السماء والأرض